أعلام من الأدب التركي

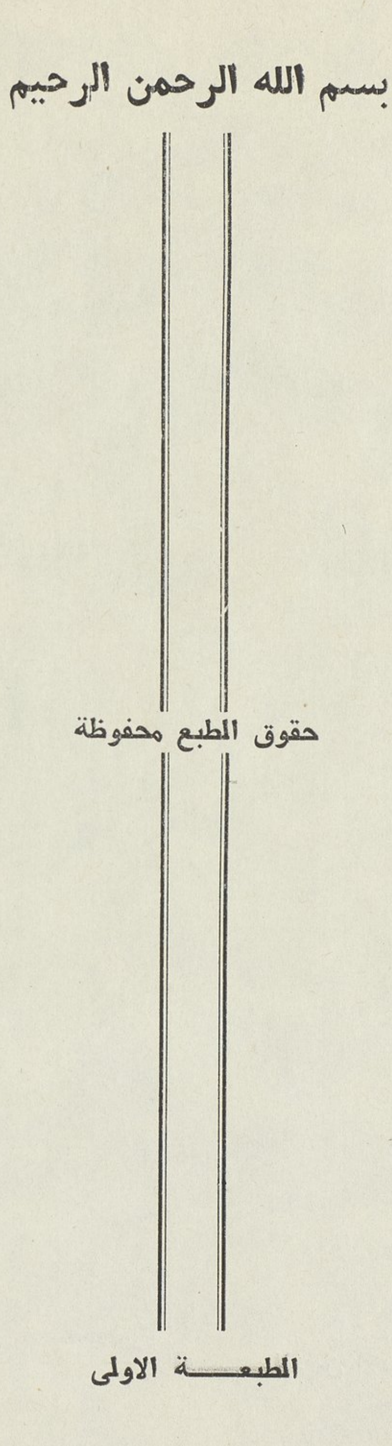
وحيد الدين بهاء الدين

ساعد المجمع العلمي العراقي على طبع هذا الكتاب

مطابع دار الزمان ــ بغداد

١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعـــة الاولى

وحيد الدين بهاء الدين

أعلام من الأدب التركي

ساعد المجمع العلمي العراقي على طبع هذا الكتاب

مطابع دار الزمـــان ـ بغـــداد

١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م

الاهـــداء

الى ...

شريكة حياتي ...،

وزوجتي ...

ولاء ووفـــاء ...

وحيدالدين بهاءالدين

محمود عبد الباقي

امير الغزل والرثاء

١٥٢٦ - ١٦٠٠

خير من يمثل أدب الديوان[1]، هو: الشاعر محمود عبد الباقي ..
انه الوحيد الذي يأتي في الطليعة الواعية، ويحتل القمة الشامخة بلا منازع ... شعره مرآة مجلوة، تعكس عصره الذي ادركه، وحياته التي عاشها، حتى لفته اكفان الابد ..

★ ★ ★

هو من الدهماء .. وابن احد الفقراء، حرم باديء بدء من نعمة الحياة .. تفتحت عيناه على هذا المرأى، ثم ابتسم له الحظ السعيد، فكان الذي كان ..

ولد سنة ١٥٢٦ بأستانبول .. كان ابوه « محمد » فقيرا، غير مالك من أسباب الدنيا شيئا، يؤذن في احد الجوامع، ليعتصر قوته من مشقاته، وعرف بصوت سمج الى حد، جعل معه البعض ينعته بـ «الغراب»، وحين أراد ان يحج الى بيت الله الحرام، توفى في الطريق.. كان رجل ورع وتقوى ..

ادخل باقي منذ صغره كصانع الى « سراج خانة » لعله أن يوفق في المستقبل لتعاطي مهنة حرة كريمة، تكفل له عيشا هنيئا، يصبو اليه الانسان، تفاديا لما لقيه أبوه من أشكال الشظف والشقاء .. الا أنه لم

---

(١) الديوان مجلس الخليفة .. اعتاد الشعراء أن يهرعوا الى مجالس الخلفاء لانشاد أشعارهم بين ايديهم، أملا في نيل بعض المآرب، والتماسا للعطف واللطف ..

يقض هناك غير فترة ، حتى نخسته رغبة للتعلم ، فأنتمى بتصميم أكيد الى احدى المدارس ، يروم تحقيق ما يخالج خلده ، ومن هنا اتسعت منافذ تفكيره ، وتغيرت نظراته الى كل ما يتصل بذاته وحياته .. اذ كان لهذا الاندماج العميق .. الآخذ بأسباب عقله وقلبه ، في عالمه الجديد ، فضل ظاهر على تكوينه الادبي ، ووعيه النفسي .

على أن باقي نفسه يعرج على هذه الظاهرة ، مثنيا على جهود المدرسين الذين علا بعونهم ، ونعم بتشجيعهم منهم : احمد ومحمد وقاضي زادة شمس الدين وسعد الدين ، والشاعر نوعي ١٥٣٣ ـ ١٥٩٨ ، فقد مهد هؤلاء له سبيل البروز ، واخلصوا في صداقته ومودته ، ووطأوا له اكتاف التقدم والتطلع نحو الامام ..

فكان بعد الانتهال من عيون الثقافة العامة ، معلما يقوم بالتدريس ، مثبتا كفايته في المجال الذي تهيأ له ..

وفي عمره التاسع عشر ، كانت الشهرة الادبية الطائرة تسعى اليه وتحوطه بهالة من اعجاب .. وأمست استانبول تحتضن شاعرها الناهض الذي شرع الناس يهتفون له ، تقديرا لمواهبه الوثابة .. الطيبة .

الاقدار تلعب دورها .. !؟

إن الانسان مجبول على الجهل بما تضمره له الايام الآتيات ، حتى ولو تنبأ بفعل من عقله الباطن ، ببعض الاشياء ، فانه من الصعوبة ، أن يدرك كل ما هنالك .. تلك هي السنة الازلية .. فالذي كان نقطة تحول في حياة باقي ، والذي سما بقدره ، وبوأه عرش الادب ، هو تمكنه ، بما وهب له من ذكاء في القلب ، ودراية في حسن التصرف ، أن يغدو صديقا من أقرب اصدقاء السلطان سليمان القانوني ١٤٩٤/١٥٦٦ ، هذا الذي أجزل له العطاء ، واكرم مثواه ، وقربه اليه ، ووثق به ، حتى طفق زملاؤه يغارون منه ، ومن حب السلطان له ، وتقديره اياه .

وكان ذا شأن اي شأن .. !

عرف قدسية الصداقة وحقوقها ، وقدرها حق قدرها ، وحرص

على المودة الخالصة التى ربطت قلبيهما ، من غير أن تسول له نفسه باستغلالها ، والاساءة اليها في يوم ما ، وكان اجمل شيء لديه ، هو أن يكون خليقا بالود والثقة ..

وما زال الشاعر به منعما .. مقيدا بألوان الرعاية والاكبار « ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا » ، حتى دهم السلطان الموت المحتوم ،وقد أخذ من باقي كما لو كانت طعنة نجلاء عميقة الغور اصابت منه الصميم .. وما كان منه ازاء هذا المصاب الجلل الا أن يقابل الاحسان بمثله ، ان لم يكن بأفضل منه .. ويرد الصنيعة المبرورة ممتنا الى صاحبها .. حيث رثاه بقلب دام ، ونفس قنوط بقصيدة رائعة هي تحفة المراثي التي تتوج هامة الادب التركي على امتداد عصوره ، وذهب النقاد بأن هذه « الخريدة » أصدق ما قيل في ذلكم العهد ، وحق لها أن تكون قمينة بوصف يأبى المغالاة .. ويقول المستشرق جب : « لو أن شعر باقي كان في مستوى هذه المرثية لعد من اعظم شعراء العالم ».

والمرثية « تركيب بند »[1] طابعها فارسى ، لشيوع المفردات الفارسية بكثرة في ثناياها ، حتى لكأنها احدى قصائد حافظ الشيرازي، ١٣٢٠ ــ ١٣٨٩ ، وقد نظمها على هذا النحو للكشف عن طاقاته الدفينة، الافصاح عن مشاعره ، ولاظهار تضلعه من هذه اللغة .. يقول :

ايه يامن وطئت قدماه رياض الشهرة والسعادة ؟!
إلام يستغرق حبك المشاق مع اقدار الدنيا التي ليس لها قرار ؟!
آذن ربيع العمر بالمغيب ..
محياك الذي هو نظير شقائق النعمان ،
استحال الى صفرة وريقات الخريف التي دنا أجلها ..
مثواك الاخير : القبر ...

---

(١) تركيب بند ، منظومة ذات أقسام .. وكل قسم يتضمن أبياتا متفقة في الروي ، ويتبعها بيت مستقل يكرر بعد كل قسم .. الا ان هذا البيت لا يكرر الا رويه ..

كالثمالة المطروحة من قرارة الكأس ..
من كان انسانا ، كان كالمرآة قلبه صافيا ..
وما دام كذلك ، فلا عشش في صدره حقد الدب ..
حتام يدوم كرى الغفلة في نظر العبرة .. ؟!
الا حسبك ما تعاور على الاسد الثائر من حال ..؟
إن ميدان السعادة للفارس المغوار ..
لن تضيق به الدنيا اثناء العدو ..
طأطأ الكفار رؤوسهم امام حدة سيفه ..
وكان الاعتراف بجلال هذا السيف ..
محياه ، كغصن الورد طراوة ..
كان لطفا منه ، أن عفره في تراب الارض ..
خازن الارض ، اودعه الصندوق ، كما لو كانت جوهرة ..
أشرقت الشمس .. هلا يستيقظ السلطان من رقوده ؟!
وهلا يرينا محياه ، من كوة خيمته الزرقاء[1] ؟!
عبثا تسمرت عيوننا عبر الطريق ..
لم يترام الينا نبأ من التراب القائم حذاء بيته[2] ؟!
لقد غارت نضرة وجنتيه ، كزهرة جف ماؤها ..
يبست شفتاه هاجعتين ..
ايها السلطان : تتسربل السماء بوشاح من غيوم ؟!
اذا ما ادركتها الطافك ، تفصدت عرقا ، وتحدرت أدمعا ..
هذا دعائي ، اذا كان شابا ، او هرما ..
من لم يبك لفراقك ،
فليدفن دموعه في الارض ، كما يدفن ولده ..
لتحترق الشمس بجذوة فراقك وكآبتك ..

(١) توفى السلطان في خيمة نصبت في معسكر بالمجر
(٢) يريد به بيت السلطان .

ولتنسل بعلتك من السحب الى سود البراري ..
لتذكرك الدماء السائلة ، نائحة على بسالتك ..
وليغص سيفك وغمده في خضم السواد ..
ولتنكسر اليراعة شجنا ..
ولتمزق الراية تألما ثوبها ..
سيفك كان ينكأ جراحات الاعداء ..
فلم يعد لهم حديث .. فقد اخرست الالسنة ..
ودهاقنة الكفر جابهوا رمحك المرتفع كالسرو ..
فما عرفوا الى العصيان سبيلا ..

الى أن يقول :

واخيرا دق طبل الموت .. فتواريت .. ؟!
وكانت رياض الجنة اولى ديارك ..
شكرا لله ، فقد اسعدك في الدارين ..
كنت في الدنيا غازيا .. وفي الآخرة شهيدا ..

والظاهر ان التقارب الروحي الذي جمع السلطان القانوني والشاعر باقي على صعيد الصداقة الخالصة ، أثر في نفوس من أتوا من بعده من السلاطين ، فكان لباقي حظوة عندهم ، ومكانة في قلوبهم، فعاملوه بالحسنى ، واحسنوا وفادته ، كأعتراف منهم بشاعريته المثلى ، وبمنزلته الرفيعة التي لا يرقى اليها معاصروه .. فأختير في عهدي السلطان سليم الثاني ١٥٢٤–١٥٧٤ والسلطان مراد الثالث١٥٤٦–١٥٩٥ قاضيا لاستانبول ، والمدينة المنورة ، ومكة المكرمة ، كذلك عين ممثلا للحكومة في « روملي » و « اناضول » لسنين عديدة .

بيد انه لم يلق رعاية كبيرة كهذه فيما بعد بسبب من نظمه قصيدة تعرض فيها – على ما قيل – عن طرف خفي بالسلطان ، فوشي به الوشاة عنده ، حتى عزله ونفاه زمنا .. وبعد مدة اعيد – وقد اصفح عنه – الى استانبول ، ليعين في منصب عال ذي أهمية بالغة ، الى أن قبضت

له ظروف استثنائية ، فرفع مقامه ، ـ دون أن يبلغه بجدارة ـ الى اعلى الدرجات ، فكان « شيخ الاسلام » !

وتوفى بأستانبول ، وله من العمر اربعة وسبعون عاما .

★★★

لا شك أن العصر الادبي الذي اتسم بالركود الذهني السحيق ، وبضآلة الاكتراث للقيم الفكرية ، وبقلة الخبرات الحياتية والحضارية ، هو عصر « الديوان » الذي تمخض عن ملابساته ما سمى « ادب الديوان » ..

ينتظم هذا العصر شعراء كـ : شيخي ٠٠٠٠/١٤٢٨ وراسخ ٠٠٠٠/١٧٧٦ ، ونشري ٠٠٠٠/١٤٩٠ ومحمود لامي ٠٠٠٠/١٥٣١ وعاشق چلبي ٠٠٠٠/١٥٧١ ونديم ١٦٨١/١٧٣٠ وبهائي ١٥٩٥/١٦٥٤ ... هؤلاء تعلموا كل ما هو من القديم واليه وألفوا الضحالة والسطحية ، وورثوا الجمود والتحجر ، فبقوا حيث هم ، معرضين عما يفجر قابلياتهم ، ويثير أحاسيسهم ، كأن العقل قد غلفه الهمود ، والشعور استبد به الرقود ، وكأن التجديد في اصول التفكير والتعبير مذمة يخشى الاقدام عليها ، والركون اليها .

تركز في مجالي الشعر والنثر همهم على المباريات اللفظية ، والبلاغات البيانية التي يطرحها المجددون .. المتطلعون نحو الآفاق الوسيعة المديدة ! ولعل مبعث هذا كله ، تلك الظروف السائدة التي كان لها دخل كبير في شل الثقافة ، وبقاء الادب حيث كان ، لا يستوي على رجليه ، ليشق طريق التحرر والتطور .

وبالرغم من كون باقي كذلك ، فانه يختلف الى حد ، عن معاصريه، اولئك فيما قدمه من النتاج الادبي .. هذا يعني : أنه مجدد بالقياس اليهم ، والتجديد له خصائصه التي تجسده ، وتدل عليه .

تأثر باقي بالاقدمين من شعراء الترك والفرس تأثرا شاملا ، وليس من منطق الصحة أن نمسك عن تبيان خطوطه العامة ، في مثل هذا

الموضوع الذي ينبغي ان يصبح فيه كلامنا لوجه الحقيقة ..

انتهى به ذلك التأثر الآخذ بالشمول ، والمقرون بالتتبع الذاتي ، الى ان يخلق معاني شعرية خاصة ، واذا رحنا نعقد موازنة بين هاتيك المعاني ، وبين ذلك التأثر ، ومبلغ ما يمكن أن يسمى بينهما من علاقة بدا باقي امامنا ، شاعرا مختلفا أبين الاختلاف عن معاصريه . وها هو ذا يقول :

يا باقي ، ظريف هذا اللون من الشعر ..
وهكذا ينبغي ان يكون مشعشعا ..

وطريف أن يقوم باقي – بعد نضج شاعريته بسبب من اطلاعه على بعض آداب الامم الاخرى ، واستكماله اسباب الوصول الى العلا – بموازنة نفسه بأكابر شعراء الفرس ، وربما لم يكن يتردد في ايثارها عليهم ، وكان من الطبيعي ان يدعو هذا كله ، من خلفه من الشعراء والادباء الى التقليل من محاكاة الشعر الفارسى ، والجنوح الى تقليده هو ، عملا بقانون التعويض .. يدعم هذا كتابته ونظمه باللهجة التركية الاصيلة .. النائية عن الكلمات الدخيلة ، هذه اللهجة التي توسعت وتطورت على ايدي شعراء كثيرين ، حتى تمثلت اقوى تمثل في شخصية باقي الادبية .. اذ غدا شعره نموذجا يقتدى به النشء ، وكان فضله لا يستهان به .. يقول متباهيا :

أنا سيد الكلام في هذا العهد ..
فقد ختم الشعر بي ..
والي اعطي زمام « الغزل » ..

★ ★ ★

باقي شاعر غنائي .. في شعره بالقياس الى عصره ، من عمق المعاني ، واصالة الالفاظ ، وقوة البلاغة ، ما اكسب فنه روح الظرافة ، وخلع عليه رداء الجدة .. ومن اجل هذا كله استأثر الغزل بشاعريته ، وهو الغرض الرئيسي الذي اولاه ما قدر له من فائق العناية ..

ومن يقرأ شعره الذي به تتجلى نظرته الى الحياة :

ان الغاية في الحياة من القيام بهذه النزهة ،

هي احتساء الخمرة مع الحبيب ..

وهل ينشد في الدنيا ، غير الحبيب والشراب .. ؟!

يدرك ان في ذلك لعلة ..

ولـه :

امام شفتيك يتضاءل طعم السكر ،

وأين الجوهرة الساقطة من كلامك .. ؟!

ويقـول :

حسب العاشق في أنسه ولذته ، خيالك ..

إنما نشدان لقياك شيء زائد .

تشير المصادر الادبيـة : أن باقي كان ممراحا .. مطبـوعا على اللباقة واللطافة .. يعشـق الجمال ويهـواه ، ويسترسل في الشراب ، متغنيا بروعة الحيـاة ، متهالكا على شـتى اللـذائذ .. وكان يغشى المجتمعات والحانات والمحافل ، ويختلف عليهـا بلا تورع ، متـذوقا مخالطة الغلمان والشبان ، واجدا من ملاقاته لهم ، والانجذاب اليهـم ، عميق النشوة والسرور ..

يخاطب غلاما ، فيقول قولا فيه تهويل واسراف :

ولئن وازنوا حسنك بحسن « يوسف » ،

وسألوني : أيكما اجمل .. ؟

فلا أملك الا ان اقول :

انك اجمل منه ...[1]

ويقول كذلك :

احترق آها فآها بنار عشقك كل ليلة ،

---

(١) هذا البيت جعل شيخ الاسلام يومذاك يسخط على الشاعر ويعلن كفره ، ويدعو الى قتله ..

واخشى كلما مست النار كياني ..

وله هذا البيت :

اذا ابتغيت روضة الورود ، فدونك الحانة ،
واذا طلبت الوردة الضاحكة ، فدونك الكأس ..

ولكن غشيانه المستدام هنا وهناك اثار قالا وقيلا ، وخلق الضجة الغريبة في كل مكان .. فتناهى اليه اللوم والسخط والاستياء ، حتى تلاشت العاصفة ..

ونرى ان انسياقه وراء عواطفه ونزواته العابرة ، ومراحه العابث الذي لا يجنح الى الهدوء ، عقد حياته الادبية كأشد ما يضحي التعقيد، حتى انه لما خاب في تحقيق ما توخاه ، وتهافتت عليه ذاته من الاماني والغايات التي طالما كحلت عينيه ، أملى عليه خياله المشبوب .. المجنح شعرا طابعه فنون ومجون ..

تناول باقي في نتاجه الشعري عددا من حقائق الحياة ، وشؤون المجتمع التي تلزم افراده استيعابها ، حتى تتاح لهم فرص العيش المستطاب ، وتنفتح دونهم ابواب التطلع والمعرفة والتوفيق .. فقد طرق احداث الماضي والحاضر ، واقام على اساسهما اراءه في كل ما استقرت عليه بصيرته وبصره .. الا ان هاتيك الاراء قابلة للنقاش ... وكيف لا تكون كذلك ما دمنا في عصر الصواريخ والاقمار الصناعية وغزو الفضاء .. ودعا الى الاستمتاع بملذات الحياة التي يقصر امدها، شريطة الحرص عليها ، من غير وضع عراقيل تعكر جمال الاذواق ، وتفسد صفو الامزجة ..

والذي يعزز هذه الدعوة في الواقع ، هو وجود تجانس متكامل، وترابط قوي بين حياة الشاعر الشخصية ، وبين اشعاره التي قرضها، وأذاعها بين مختلف الناس .. اذ يقول :

جمال وجنتيك كنز على مصراعيه مفتوح ..
وكانت جدائل هامتك كالحية ، نحيلة ..

ويقـول :

في غمرة الغرام ، تترقرق من العيون دماء
ان قلوب الوامقين كسيرة ..
عليل انا بداء الحب ..
فقد اصبت ببلاء البين ..

ويقول :

حينما داعب شعرك الاسود ، خدك ،
طالعني نور محياك ... فآمنت ..

وبالرغم من ذلك ، نظم اشعارا قليلة في الحكمة والفلسفة ، وثمة اعتقاد ان ما نظمه في هذا المجال ، هو من نتاج آواخر ايامه ، اي بعد ان تكون صروفها قد صقلته وعركته كما ينبغي .. ثم إنه لم يعالج مسائل الدين والتوحيد والتصوف ، حتى ولو عثرنا على ابيات نشم منها رائحة كهذه ، فانما كان ذلك بمثابة اسدال ستار على مشاعره الملتهبة ، الممعنة في الالتهاب .. وعلى النقيض كان يرى في التعريض بالزهاد والوعاظ والمتصوفة ، لذة أيما لذة ..

ويتضح تفننه الشعري ، في انه كان يضمن اشعاره ـ بباعث من ولوعه الشديد باختبار الذكاء ـ أحاجي والغازا .. حيث يستعمل الكلمات في عدة معان ، ويجمع تلك التي متقاربة في دلائلها ، وقرائنها ..

★ ★ ★

ديوان باقي المطبوع يحتوي على معظم ما نظمه من اشعار في شتى الاغراض التي راقه ان يتناولها .. يحتل الصدارة فيه شعره الغزلي العاطفي الذي عده الباحثون من اروع نتاج ادب « الديوان » .. وقد

ترجم العلامة النمساوي « فون هامر » بعضا منه الى اللغة الالمانية .

وله كتب مترجمة عن اللغة العربية التي ضرب فيها قسطا وافرا ، وهي كتب تدخل ضمن دائرة التاريخ والحديث والسيرة النبوية ، منها : « فضائل مكة » لقطب الدين محمد بن احمد مكي ، و « حديث الاربعين » وهو ما جمعه ابو ايوب الانصاري و « معالم اليقين في سيرة سيد المرسلين » لشهاب الدين احمد بن محمد القسطلاني ، وبذيله شروح وايضاحات للمترجم و « فضائل الجهاد» لاحمد بن ابراهيم .

ابراهيم شناسي

رائد ادب التنظيمات

١٨٢٦ - ١٨٧١

اعتنق الاتراك الاسلام على شكل كتلات في منتصف القرن العاشر .. على ان انتشار الدين هذا الحنيف بينهم ، غير نواميس حياتهم ، وقلب مقومات مجتمعهم رأسا على عقب .. مؤثرا فيه ذلك التأثير البين .. العميق الذي ادرك الجذور ، ثم تجاوزه طبقا لهذه القاعدة الى اكبر مدى ، فأثر في طبيعة اللغة التركية من حيث المضمون والصورة . وبحكم ما خلقته الحضارة الاسلامية ، بدا كظاهرة للحياة العامة أدب الديوان ، ويبدأ من القرن الحادي عشر حتى اواسط القرن التاسع عشر .

ويحسن الذكر ان هذا الادب ما كان يجاري متطلبات الحياة ، ويعقد الصلة بينه وبين شؤونها ، ويؤدي ما يفرض عليه من غايات التثقيف والتفاعل ، فنكص على عقبيه متخاذلا ، لقصوره ووقوفه جامدا حيث هو ، مما حدا بالمعنيين بالوعي الثقافي ، ان يقفوا منه موقفا اقرب الى الايجابية منه الى شيء آخر ، حتى اذا ادرك المجتمع تطور في طرائق التفكير ، ووسائل التعميم ، بعد اعلان التنظيمات السياسية[١] تخلوا

---

(١) تعني اصلاحات استهدفت مصلحة الشعب منها تنازل السلاطين العثمانيين عن بعض حقوقهم بعد ارتفاع الشكاوى وتزايد الضغط عليهم ، ومنها عدم جواز توقيف أي شخص قبل توجيه تهمة معينة اليه ، ومنها سواسية جميع المواطنين والرعايا امام القانون ولو اختلفوا في الدين واللغة ..

عنه ، وقد اكتسب موقفهم صفة العدول ، متجهين نحو الفكر الغربي .

يجمع المؤرخون على ان فكرة « التفرنج » الاولى من اهتمام بالاتجاهات الادبية ، والمشخصات الاجتماعية ، والاقرار بما لها ، ترجع الى عهد التنظيمات .. اذ ان الفكرة الاساسية هذه التي ذاعت وتغلغت، انما احدثت انقلابا تولد معه اختلاف النظرة الى ذات الحياة ، وتفاوت القيم والمقاييس . ولا ريب ، كان هذا انفتاحا ذهنيا جديدا ، استتبع بروز ادب جديد يأخذ موضعه ، وخلق حياة معاصرة ، تستروح اريج الانطلاق ، وتعزف لحن البقاء ..

وعليه فقد سمي هذا الادب الذي طلع للوجود يثبت كيانه أدب التنظيمات ، وهو يحوي القصة ، والمسرحية ، والمقالة ، والخاطرة ، والنقد ، والشعر .. ومن قادته ابراهيم شناسي ، الذي يعد مؤسسه وقطب رحاه .

★ ★ ★

ولد ابراهيم شناسي بأستانبول سنة ١٨٢٦ من أب ـ ويدعى محمد آغا ـ كان ضابطا في احدى وحدات الجيش المدفعية ، وقد استشهد في معركة نشبت بين الاتراك والروس ..

كفلته امه الارملة بالقيام على رعايته ، وادخاله المدرسة ، توخيا استقراره في المستقبل المنتظر .. اذ تعلم باديء بدء في الكتاتيب ، ثم انتمى الى قلم « الطوبخانة » بمحلتهم .. ومن هنا اتصلت اسباب حياته بذوي الفكر وارباب المعرفة ، فدرس عليهم العلوم الشرقية واللغتين : العربية والتركية ، ووقف على الفلسفة الدينية ونظرياتها ، الى ان عين موظفا له شأن ، وقيض له بعد هذا كله ان يتعلم اللغة الفرنسية على يد استاذ اجنبي كان وجوده بالنسبة اليه فتحا جديدا ، وسع مداركه ، وحدد مواقفه ، فأحاط عند ذاك بأسس الحضارة الاوربية ، محللا عواملها وتأثيراتها في العالم كله ، وسبر اعماق العلم والفلسفة ، وعرج على خصائص التاريخ ، ومبلغ قدرته على ربط العتيق الدابر ، بالحديث

الحاضر .. وكان من ورائه أن امتلك شناسي زمام الثقافتين : الشرقية والغربية ، على نحو اكسبه قدرا . ولكي يشبع ذلك النهم الجائع ، ويشحذ طاقاته الغنية ، اعتزل الناس ، يتفادى مجالستهم ، مرتميا بين احضان التتبع ، غارقا في دنيا القرطاس والقلم .

ولكن بعد اعلان التنظيمات السياسية نفض عن ذاته غبار الانكماش والوحدة ، حتى حان ذلك الوقت الذي بعثه فيه ، الصدر الاعظم مصطفى رشيد پاشا ١٧٩٩ ــ ١٨٥٧ مع غيره من نظرائه الى اوربا ، ليطلع على أحدث الامور التي تبنتها طبيعة الحضارة الاوربية .. فقد توسم فيه ذهنية متفتحة يمكن استغلالها وانضاجها في تدوير شؤون خطيرة ، وعلى اثر عودته من اوربا عين عضوا في مجلس المعارف والمالية، ومن ثم عزل من منصبه انتقاما منه وتنكيلا به .. على ان تعيينه اعيد للمرة الثانية بعد قصير وقت . واصدر سنة ١٨٦٢ بالاشتراك مع أكاه افندي ، احد رجالات الفكر ، جريدة « ترجمان احوال » غير الرسمية، ولم تكن تصدر آنذاك جريدة رسمية غير « تقويم وقايع » .. الا ان شناسي ــ وهو شيخ الصحافة ــ انسحب ، على اثر سوء تفاهم من تحرير الجريدة التي حملت بجهده عناصر الجدة والقوة ، ثم قام فأصدر وحده جريدة « تصوير افكار » التي سدت الثغرة الكبيرة في تاريخ الصحافة العثمانية ، وباتت ركيزتها الاولى التي لا تتجاهلها الاكثرية الساحقة من المؤرخين ، والمتتبعين ، ولكن ما ان مرت على صدورها ثلاث سنوات ،حتى تخلى عنها للشاعر الوطني نامق كمال ١٨٤٠ ــ ١٨٨٨ .

ثم قصد شناسي الى پاريس نشدانا للاستجمام .. وما رجع منها الى الوطن الا بعد خمس سنين .. واستأثرت به يد الموت بعد حدوث رجات عنيفة في رأسه ، وعمره خمسة واربعون عاما ..

ومن مؤلفاته « ديوان شناسي » و « ضروب الامثال العثمانية » و « زواج الشاعر » وهو تمثيلية هزلية تصور حالة المرأة المسلمة

يومذاك •• اضافة الى عدد من المباحث والمقالات والترجمات والنقدات التي نشرها في الصحف •

★ ★ ★

يقر الباحثون بما لا يخلق التساؤل ، بأن شناسي الذي تشرب الادب الفرنسي ، وتوغل في صميم الحياة الاوربية ، يعد باني كيان الادب التركي ، المتأثر بالحضارة الاوربية ، ورائد ادب التنظيمات !•

إنه عمل على انقاذ الادب الحبيس من وهدة الجمود والسطحية، وتطعيمه بالذهنية الغربية ، ليكتسب الجدة والعمق •• وادرك وجوب تخليص اللغة التركية من المفردات الدخيلة عليها لاسترداد ذاتيتها ، والاخذ بيدها بغية منحها طاقة الافصاح والاصالة • على ان الادب التركي ما كان يمت قبل ذلك الوقت بصلة قريبة او بعيدة الى الثقافة الاوربية التي اثرت فيه شكلا ومضمونا ، وسمت به فكرا وروحا •

وجميل ان نذكر ان الاتراك الذين عاشوا في هذه الفترة اتخذوا الادب الفرنسي مثالا يحتذى ، لا حيد عنه •• وتهيأت لشناسي دواعي التعرف خلال وجوده بباريس ايام الدراسة ، الى المستشرق الشهير دوساسى ، والى شاعر الحب والجمال ، الفونس لامارتين ، والى الفيلسوف المؤرخ ارنست رينان ، وتبادل واياهم افانين الرأي والحديث، ثم اطلع على آثارهم التي كتبوها اطلاعا فيه توغل واحاطة ، جعلاه يرغب في الادب الغربي ويميل اليه اشد الميل •• وتحدثنا المصادر أنه تأثر بلافونتين ، كبير شعراء فرنسا ، الى غاية قصية •• فأخذ بحكم هذه البواعث التي جعلت تنخسه ، يعالج موضوعات جديدة لم يطرقها قبلا ، تمس حياة الانسان وعواطفه ومراميه ، ويقول اشعارا طابعها لطافة وحركة ، متحررة من اغلال الجمود الذي ران على الشعر التركي •

ومما نظمه حكايات شتى مستمدة من الامثال الخرافية السائدة كحكاية « الحمار والثعلب » وحكاية « الغراب والشحرور » وحكاية « الزنبور والبعوضة » وحكاية « الطاقة الروحية » • على انه ليس من

الصحيح في شيء ان نعد هذا عمـلا تقليديا صرفا ، ينبغي ان يحاسب عنيه شناسى الموصوف بوقدة العقل وذكاء القلب .. ذلك لان التأثر كما هو معلوم ، غير التقليد الذي يقتل عنصر الابداع في مهده ، ويقضى عليه بالمرة .. وبهذا انما مهد الشاعر لنفسه طريق السـير قدما نحو الامـام ، لأن يترجم نظمـا الى اللغـة التركيـة روائع الفرنسـيين النابضة بالروعة والصـدق كژان راسـين ١٦٣٩ ـ ١٦٩٩ ولاڤونتين ١٦٢١ ـ ١٦٩٥ ولـوران ژيلبـر ١٧٥١ ـ ١٧٨٠ وفرنسوا فنالـون ١٦٥١ ـ ١٧١٥ والڤونس دي لامارتين ١٧٩٠ ـ ١٨٦٩ ، وكانت ترجماته موفقة ، وهي الاولى من نوعها في تاريخ الادب التركي ، فمثلا ترجم عن راسين قصـة « اندروماك » وعن لاڤونتين حكاية « الحمل والثعلب » وعن لامارتين مقطـوعته « الذكرى » الواردة في كتـابه « التأملات » ويقول فيها ما ترجمناه الى اللغة العربية بتصرف :

بكل حواسي احبك يا حبيبتي ..
هذا ما طرق سمعي ..
غيوم تلف الطبيعة صباح مساء
صفحة الماء تعكس ملاحة وجهك
يتماوج نحوي صوتك ، كما لو كان نسيم الربيع

★ ★ ★

من يتخلص من سطوة الموت اذا انبرى ..؟
رياح تهب ، ولكنها لا تسمع الزفيف ..
صوتك الخافت ، احسبه يتدحرج الان ..
فأصغي اليه ، وهو لا يتعدى بقايا حديث

★ ★ ★

أنا ان اجلت الطرف في هذي النجوم ،
فمن يحيل سجوف الليل ، ذوائب براقة ؟!
كأنما وجهك يضحك لي ..

لعيني يتراءى كل نجم رائعا ..

★ ★ ★

متى تلقني انفاس النسيم ، وعبقات الزهور في احضان الانتشاء،
يكن الجمال قد لف كياني ، وغمر جوانحي ..
نفحاتك أشمها بهيام ،
كل هذا من اجلك أنت .. يا حبيبتي ..

اضافة الى هذا كله فان شناسي لم يقف عند حده ، وانما قام يحث الطبقة الواعية من الاتراك على منابع الفكر الغربي للارتشاف منهـا ، والاستعانة بها ، على تركيز ادبهم ، والنهـوض به ، واشـباعه بروح التجديد والانفتاح ..

ويتضمن شعر شناسي سمات الروعة والطرافة ، فلو انك رفعت قطعة صغيرة من قصائده الطوال ، لحسبتها وكأنها قد نظمت على حدة ، تعالج فكرة خاصة ، ولو عدت بعد ذلك فوضعتها في محلها كما كانت ، لوجدت القصيدة تعالج فكرة مستقلة عامة ، ومرده الى انه تجمعهمـا الوحدة الشعرية والترابط الفني ، وهما من ركائز القصائد المشـحونة بالطاقات الهائلة ..

يزعم بعض النقاد ان شناسي وان كان رائد النهضة التجددية الذي عالج موضوعات تعليمية ، وادخل ابتكارات في الادب التركي ، ودفعه الى النور والترقي ، ليس من المستطاع اعتباره شاعرا من الدرجة الاولى، لمجرد شيوع شيء ضئيل من الزحافات والعيوب في اشعاره ، غير انه يحتل ـ على حد زعمهم ـ مكانة مرموقة ، بما تركه من آثار قيمة في النثر .. فقد كانت له اليد الطولى في تحريره من ربقة السجع المتكلف ، والزخرف المستهجن بدلالة قيامه ، ـ وكان صحفيا بارعا طويل الباع ـ بمخاطبة الشعب واعلامه قضاياه ومآربه بلغة لا ينحرف بها تصنع مستكره . على ان الشيء الذي يعزز عمله هذا ، محاولته نظم قصائد باللغـة العامية المتداولة ، منها قصيدته « الشحرور والغراب » التي يقول فيها :

ذات يوم ألمّ الجوع بالشحرور ،
امه كانت تبحث عن قوت تسد به رمقه ،
ولكن ريحا عاتية عصفت بعشها ،
وتزاحم اطفال القرية على فرخها ،
فبات العوبة بيد صبي ..
حيث اودعه رهن قفص ..
تحت شجيرات الاشواك ..
ثم اقبل غراب ، يحوم حول اشجار الكرز ..
فأستوى عليه ينقر غصونه ..
فقال له الشحرور : اهلا بك يا سيدي البلبل ؟!
هلا تكرمت علي مما تأكل .. ؟
فقال الغراب: اما أن تصوم، واما ان تبحث عما تشتهي بنفسك
وليس من عزة النفس أن تستجدي .. ؟!

ثم لا يغرب عن خاطرنا ما يقتضي التنبه له ، وهو أن شناسي كتب حكاية شعرية تحمل عنوان « الحمار والثعلب » ، في حين ان للاقونتين، الاديب الفرنسي ، حكاية مماثلة موسومة بـ « الغراب والثعلب » ... اذ ان ما جاء في تينك الحكايتين يكاد يكون واحدا لتشابه المعاني ، وتقارب الافكار ، ولكن هذا لا يمكن ان يكشف الا عن « تشبع اللاحق » الذي هو في الواقع « توارد الخواطر » ليس الا .. وعن تأثر شناسي بلاقونتين ذلك التأثر العميق الذي تطرقنا اليه قبل حين ...

عالج شناسي من الاغراض الشعرية العديدة ما تضمنه ديوانه الحافل ، وقد انطوت على معان مبدعة ، رائعة ، نفس بها عما يمور في جوارحه ، واطلق بها عما يهدهد خواطره ، ومن هاتيك الاغراض « الدينيات » وتتناول المناجاة الالهية ، ثم « المقطعات » وتضم قصائد اربعا قيلت في مصطفى رشيد باشا ، هذا الذي كان قد قيض لشناسي ظروف التطلع والتبرز ..

وورد في احدى هذه القصائد :

البحث عن درب الحق ، دأب كل ذي عقل سليم ..
فان اراد توفيقه ، فقد دله ..
والمحروم اذا طلب ثمرة التوفيق ، وعجزه يتراءى له ،
فان العاقل لا يتضرر من ذلك العجز ..
ولو جابه حادثا ، استحال له درسا نافعا ..
واذا تصدى لبلاء ، ولفه داء ،
فقد اعتبر بهما ، وكانت عظة بالغة ..
لا تثبت حقيقة الانسان ، الا اعماله ..
وبمقدارها يتغلغل الخير ، ويعم الشر ..

ومن بعدها تأتي « الغزليات » وهي اعراب خالص عن الاحاسيس الوجدانية الطافحة ، ثم « المدحيات » وتقتصر على السلطان عبد المجيد ١٨٦٨ — ١٩٤٤ ومحمد علي پاشا ١٧٦٩ — ١٨٤٩ وزوجة شاعر ، ومن اليهم .. ثم « المفردات » وتحوي مأثورات غزيرة ، وامثالا جامعة ، تشف عن تضلع الشاعر من اللغة والادب ، ووقوفه على كل شاردة وواردة ثم « الشرقيات » ثم « التاريخيات » وتكونها بعض الاحداث الهامة التي احتلت مكانا في التاريخ البشري ثم « الهجائيات والهزليات » .. وهذا قليل ليس بذي طائل ، ثم « الحكايات » وقد مررنا عليها آنفا ..

نامق كمال
شهيد الوطنية والحرية
١٨٤٠ - ١٨٨٨

باعتراف الباحثين ان ادب التنظيمات ، يرتكز كيانه الذي حمل بذور البقاء والتطور ، على اعلام ثلاثة : ابراهيم شناسي ، وضياء پاشا ، ونامق كمال ، كان وما يفتأ يعد ما انتجوه من ألوان الشعر والنثر ، ارهاصات الادب التركي المتجدد .. المنقى من شوائب المحاكاة والجمود ، المتحرر من العتيق والمطروق . غير ان اسم نامق كمال يتردد على شفاه عشاق الأدب اكثر من عشيريه ، وان نتاجه المتداول يلقى من النقاد رعاية لا تتهيأ أسبابها لغيره من اقطاب دولة الشعر .

نامق كمال رمز الثورة .. ورجل الاقدار ..

اندفع وبين ضلوعه نار كاوية ، يخوض غمرات الحياة الهائجة ، مرتلا اناشيد الوطنية ، وترانيم الحرية ، ونغمات الانسانية ، ذائقا في سبيل تعزيزها عناء مستداما ، ومرارة متصلة ، غير عابىء بما يضمر له الزمن القلب من مباغتات ومآس ، متقبلا النتائج التي يمكن ان تترتب على كفاحه الفردي الشديد من جهة ، ونضاله الجماعي العنيف بالتضامن مع زملائه من جهة اخرى ، مستشعرا أن لا كرامة لامة ، اية امة ، الا اذا اتيحت لها حرية كاملة متكاملة ، واستوفت حقوقها الطبيعية ، في حياة مطمئنة .. مستقرة ، لا يشوهها استعباد كريه يشل النهضة الاجتماعية ، واليقظة الفكرية ، ولا يكتنفها اضطهاد مقيت ، يكتسح القيم الخلقية ، ويصد تيار التشوف نحو المجد ..

★ ★ ★

ولد نامق كمال سنة ١٨٤٠ بتگير داغ ، من ام غابت عنه غيبة أبدية ، وعمره يومئذ عامان ، وأب ينتمي الى اسرة مرموقة لها شأنها في المجتمع التركي .. شاءت الايام ان يحرم من تلقي تعليمه في مدارس رسمية ، بباعث من تنقله مع جده عبد اللطيف پاشا الذي كان متصرفا لاناضول ، وقد كان لهذا التنقل فضل ظاهر على فكره الطري الذي نبدى جنوحه بالفطرة الى الادب والشعور بلذته .. تعلم اللغتين : العربية والفارسية على رجال مختصين ، وهبوا المقدرة والذكاء ، الى جانب عنايته بدراسة التاريخ والتصوف ، ثم نخسته الرغبة ، لتعلم اللغة الفرنسية ، حتى بلغ غاية توخاها .. فكان عصاميا يصنع نفسه ..!

وبعد زواجه بسنتين غادر الى استانبول ، فثافن ادباءها وشعراءها، وطارحهم أفانين الكلام والجدال ، وهو متأثر بهم ، منجذب اليهم ، مستفيد منهم ، وبالتالي متطلع الى المجدي والطريف .. على ان لاتصاله برائد ادب التنظيمات ، ابراهيم شناسي تأثيرا عميقا في اخصاب ملكته المتنامية ، وحضه على المثابرة ، وتفجير افكاره ، وتغيير مجراها نحو الثقافة الغربية ، المشحونة بطاقات غنية .

وفي الوقت الذي عين فيه نامق كمال مترجما بالباب العالي ، التحق بتحرير جريدة « تصوير افكار[1] » .. هذه التي طالما نشر فيها من المقالات النقدية العنيفة ، بشأن اضطهاد الحريات السياسية ، وطغيان الفوضى والاثرة ، واستشراء الفساد ، وتبلبل الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، ما لفت اليه انظار الجماهير .. ومن ثم انتسب الى جمعية « العثمانيين الجدد » ، كان القصد من تشكيلها مناهضة الادارة الرجعية والسياسة الاستبدادية التي ينتهجها الخليفة عبد العزيز ١٨٣٠ — ١٨٧٦ ، واستبدالها بالادارة « المشروطية » الرامية ، الى اشاعة الديمقراطية ... فلما تناهى الى مسامع الحكومة أمر هذه الجمعية ، نفت اعضاءها من الموظفين وغيرهم الى اماكن نائية ، تجميدا لنشاطاتهم ، بما فيهم نامق

---

(١) اصدرها ابراهيم شناسي ..

كمال ، وقد أبعد الى ارضروم بحجة تعيينه معاونا لمتصرفها .

ادرك الرجل ما لحقه من الاهانة ، لمجرد ادائه قسطا من واجبه في سبيل تحرير الوطن من براثن الانحلال والتمزق النفسى .. فلم يطق تحملها ، ولم يكظم غيظه ، وما ان تحالفت ظروف سياسية على تسوية علاقته بالباب العالي ، حتى اندفع يهتبل الفرصة السانحة لانجاز ما صمم عليه في قرارته .. حيث هرب سنة ١٨٦٧ الى پاريس يصحبه خدينه الشاعر ضياء پاشا ١٨٢٥ ـ ١٨٨٠ ، ومنهما يمما لندن ، وبمؤازرة مصطفى فاضل پاشا اعادا تأسيس جمعية « العثمانيين الجدد » هناك ، واصدرا جريدة ـ للتعبير عن وجهة نظرها ـ سميت « حريت » !

ثم عادت المياه الى مجاريها .. واعلن العفو العام في كل ارجاء البلاد .. واذا بنامق كمال يرجع الى استانبول ، لا لشيء الا لمواصلة العمل السياسى المستميت من اجل الوطن والحرية .. واصراره على تحقيق ما يراوده من الآمال ، انهاضا بالشعب المنتظر .. المفتقر الى مستوى لائق به ..لم يهدأ له بال .. ولم تستقر به حال .. كأنه لم يفعل شيئا .. انما بدأ من حيث انتهى .. وهو اشد ما يكون عزما وصلابة .. شرع ينشر المقالات الناضحة بالنقمة والسخط ، والطافحة بالسخرية والنقد في جريدتي « حديقه » و « عبرت »[1] ، مما هز عواطف متقدة يغطيها الرماد ، وايقظ نفوسا أناخ عليها ثقل السبات .. وجعل الحكومة تسلك تجاه هذا العمل الذي لا ينطوي الا على تقديس حرية الوطن ، وسعادة الشعب ، مسلكا غشوما ، فأغلقت الجريدة ، وابعدت محررها نامق كمال الى كليبولي ، بدعوى تعيينه متصرفا لها ..

وكانت وقفة .... ؟!

كانت للرجل ازاء هذا كله وقفة مشرفة ، قوبلت من لدن الشعب بكبير اهتمام وتقدير .. اطرح وظيفته متخليا عنها ، عائدا الى استانبول، وهو يردد :

---

(١) أصدرها هو نفسه .

الفيت الحكام يحيدون عن جادة الصدق والسلامة
فتخليت عن سدة الحكومة بسعد وكرامة

ومن جديد قام يمارس الصحافة ، ويتابع الكفاح السياسي ..
اثارت اشجانه قضية الوطن ، وقد بات نهبا للطغاة واستغلالهم واطماعهم .. وهيج خواطره ما آلت اليه حال الشعب المنكوب ، هذا الذي يعبث بمقدراته ، حكام مستهترون ، تنكروا للمثل العليا ، ودفنوا الاحلام الزاهية ، والآمال الموعودة .. يقول .. وماذا يقول :

يوما ينتضي الشعب سيوفه ،
فتقوم القيامات ،
وتغرق الزهور في بحران الدماء ..
الادنياء الذين بلغوا ذرى المجد ايام زمان ،
وشركاؤهم الذين قوضوا صروح البلاد ،
ومن عاونهم من منافقين وجواسيس ،
سيعلق كل واحد منهم على اعواد المشانق ..
ازالوا الامجاد والسلطنة .. وازهقوا النفوس والارواح ..!
هؤلاء العتاة ، ستحتويهم ظلمات القبر ..
ويساقون الى الجحيم ..
هذه الدنيا ، دار العدل والامتحان !
ومن يفرطون في حق الشعب ،
يذهبون قرابين له ..

★ ★ ★

تدور رحى الزمان ..
فتتولى القيادة ، حكومة قادرة .. مقتدرة ..
سيفنى المستبدون ..
وتتحقق اسباب الحرية لكل انسان ..
وتعود الدولة قوية ، والشعب سعيدا .. مرفها ..

وما يطالعك من خرائب البلاد ،
سيتحول الى ازدهار وعمران ..
والذين لفتهم الرهبة ، وخالجهم القلق ..
سيجدون انفسهم تحت ظلال وريفة من امن ودعة ..
وسيجمعنا الاتحاد ، بمثله الاعلى ..
ويتساوى الجميع في الحقوق والواجبات ..

هذا كله جعله يكتب مسرحية « الوطن » أو « سلسترا »[1] التراجيدية .. الكوميدية .. كشف فيها ما يجب أن يكون عليه واقع الوطن والشعب ، وبين ما يربط بينهما من صلات متينة لا تقبل الانفصام ، وفي احدى الليالي ، مثلت المسرحية بصدق وبراعة ، فكان لها رد فعل عميق ، وكانت قمينة بأن تثير الجماهير ، وتجعلها تهتف : « يحيا كمال الشعب » ..

وفي غمرة هذا الاحساس الذاتي ، وهذا التجاوب العميق الذي لقيته مسرحية « الوطن » ، عاد نامق كمال ، فدبج مقالا ناريا في اصول الحكم وتسيير سفينة الشعب الى شاطىء الأمان ، عدته الحكومة خروجا على سيادة القانون ، فحذرت جريدة « عبرت » من مغبة نشر هاتيك المقالات الصارخة التي لها مالها .. ولكن نامق كمال الذي استأثر به الحقد السياسى ، رد على الحكومة بمقال كله تطاول وتحد ، كان باعثا على تعطيل الجريدة ، ونفيه هو الى جزيرة قبرص ..

ذاق عذاب السجن دون مبالاة ، مستمرئا تباريح الوحشة ، منكبا على التأليف ، تداعبه نشوة الوطنية والحرية تارة ، ويسمو به جلال الموت في سبيلهما تارة اخرى .. وكانت حصيلة ذلك كله رسائل ادبية ، ومسرحيات في الحياة والاجتماع والوطنية والتاريخ ، هي : «كلنهال» و « عاكف بك » و « زواللي چوچوق » و « جلال الدين خوارزمشاه» .. وللاخيرة مقدمة طويلة يعرض بها نامق كمال تأثره البعيد المدى

---

(١) مدينة على الدانوب .

بالنزعة الرومانتكية ، واقتداءه بفكتور هوغو ١٨٠٢ ـ ١٨٨٥ في مسرحيته كروموبل ، كما يعرض ما تسنى له من آراء خاصة ..

وبعد ثمانية وثلاثين شهرا أطلق الشاعر .. فآب يجدد العهد بما وطنت العزيمة القعساء عليه ..

وحين مجيء عبدالحميد الثاني ١٨٤٢ ـ ١٩١٨ الى الحكم ، عين نامق كمال ، بناء على رغبة مدحت باشا ١٨٢٢ ـ ١٨٨٤ ، عضوا في اللجنة المختصة التي اخذت على عاتقها سن القانون الاساسى ..

لكن عبد الحميد تاريخه أسود .. حافل بالاوزار والمظالم ..

انه ما لبث أن انقلب على الحرية ودعاتها ، فطفق يلاحق المفكرين والادباء والاحرار ، ويزرع الذعر والرعب في ربوع البلاد ، حتى امتدت يده الى نامق كمال ، الذى تمرد على طغيانه وحكمه ، وتبرم باعماله المستهجنة ، فنفاه الى جزيرة مدللي التي تولى ـ وهذا بلا ريب من طرائف المصادفات ـ متصرفيتها فيما بعد ..

وما زال بها ، حتى تعاورت عليه قوى البغي والشر ، فتقلب على الاشواك الوجيعة ، جراء تلك السياسة الرجعية الرعناء ، ثم سيق الى جزيرة ردوس ثم الى ساقسز ، بيد أنه لم ينثن ، بل زاد ايمانه عمقا ، واحساسه رقة ، وفكره اتقادا .. أو ليس هو القائل :

ليؤلب عليّ الزمن أسباب نكبته ومحنته ،
فانا عازم على أن لا أحيد عن طريق الشعب ..
ولو حدت ، لكنت عاهرا ...

ثم يقول ، وقد بلغت به الشكوى اللاذعة ، والغيظ السحيق كل مبلغ :

عبر حياتي لم أحمل اغلال الاسارة ،
فقد عرفتني الدنيا بريئا من قيودها ..
هوذا ، أيها الجلاد ، ميدان النخوة ،
ليفنك الله فيه او ليفنني .. ؟!

وبها أصيب بذات الرئة .. فذهب ضحية الوطن الذي به آمن..
وفداء للحرية التي عشقها .. محتلا مكانه الجدير به في سجل الخالدين ..

وقد اوصى أن يكتب على قبره :

لئن مت ، ولم أر بني وطني ينعمون بمثلهم الأعلى ،
فليكتب على جدثي : الوطن محزون .. وكذلك أنا ..

★ ★ ★

نامق كمال تاج يرصع رأس الأدب التركي ..

لأنه شاعر عظيم .. وأديب كبير ، ولو تنوسى كثير من الشعراء ، فاز ذكرى هذا الباقعة كفضولي البغدادى ١٤٩٠ ــ ١٥٥٥ وتوفيق فكرت ١٨٦٧ ــ ١٩١٥ وعبدالحق حامد ١٨٥٢ ــ ١٩٣٧ تبقى خالدة على كر السنين ، ولأنه مبدع بالقياس الى عصره ، واذا كان ابراهيم شناسي ، صاحب فكرة التجديد في أدب التنظيمات ، فان نامق كمال وطد قواعد هذا التجديد بوعي متناه وتصميم قاطع ، وعمل على تلقيح الفكر الشرقي المتزمت بالفكر الغربي المجنح ، وازدواجهما .. حتى اطلق عليه ــ كما تقول المصادر ــ « أستاذ الأدبيات الاعظم » ..

على ان شعره في شرخ الشباب ، وليد البيئة العتيقة المتأخرة ، والذات السجينة في قوقعتها ، وما اعتورهما من ملابسات وتغييرات تواتر عليهما من بعض الأحداث التي أذكت شاعريته المتفتحة ، وهمزت احاسيسه المشبوبة ...

كان تعبير .. وتعبير موار ..

فقد عبر عن مزاجه الحاد .. ومطمحه الكبير الذي يرنو اليه مرتقبا .. مستشرفا المستقبل ، وعن آمال الوطن المتوخاة ، ومشاعر الامة الصادقة التي تشغلها ابدا ، وتقض مضاجعها ...

انه وطني متحمس .. مفطور على الاخلاص له .. والتفاني من اجله .. ولا بدع ان هو فعل ايما شيء ، ملقيا بنفسه في عباب المخاطر.

قال في قصيدة « الوطن » ..

من يدرك ذاته كانسان ، فلا يمل خدمة الشعب ..
ذو المروءة ، لا يسحب يده ، عن معاونة المظلومين! ..
واذا الشعب أحتقر ، فلا تظنن أن ذلك يقلل من شأنه ..
فان الجوهرة لا تفقد قيمتها ، لو تهاوت على الارض ..
وخميرة ذاتك من تربة هـذا الوطن ..
فلا هم ان افنى في سبيله .. واقاسي الظلم ..
الادنياء في الدنيا حضنة الطغاة ..
كلاب اولئك الذين يخدمون صيادين تجردوا من الانصاف ! ؟
لا يمكن محو الحرية بالظلم والاستبداد ..
اسع .. فالمدرك لا يقتلع من ذهنه الحرية ..
ان الغيرة في النفس جوهرة ..
لا تذل تحت القسوة والشـدة ..

وخليق بالذكر أن ما قرضه في هذا العهد لا يتعدى حدود المحاكاة لأسلوب القدامى من اقطاب أدب الديوان كنفعي عمر .... / ١٦٣٤ ونديم احمد ١٦٨١ ـ ١٧٣٠ وفهيم مصطفى .... / ١٦٤٨ ، الا أنه تخلص من بعض القيود ، بعد أن توثقت عراه الفكرية بابراهيم شناسي، هذا الذي وجهه توجيها سليما ، وجعله يحتك بمحيط بدأ يخلع عنه ما يمت الى القديم من اثواب ، فعندئذ تجدد شعره من حيث المضمون دون الشكل ... حتى كانت رحلته بتشجيع من زميله الى فرنسا ..

ومن هنا كانت بداية التحول ، ونقطة الانطلاق ...

فان النزعة الرومانتكية قد لاحت مظاهرها بفرنسـا ، وشرعت تسود الآفاق ، جبارة ، مكتسحة القديم وبقاياه ، حاملـة كل طريـف ومرغوب ، تاركة تأثيرات في الرؤوس والنفوس ، تزعمها كبير الشعراء فكتور هوغو الذي اصدر يومـذاك مسرحيتـه المعروفـة كروموبل ١٥٩٩ ـ ١٦٥٨ بطل الثورة الانكليزية ، بعـد أن قـدم لها ببحث

مستفيض في الرومانتكية ومزاياها وكان ظهور هذه المسرحية الشهيرة متفقا مع قدوم نامق كمال الى فرنسا ، فسرعان ما تأثر بهوغو الى اقصى الدرجات ، الى جانب تأثره بالنزعة الجديدة التي انهمك شعراء العالم في اقتفاء خطاها ، والسير في ركابها ..

وعاد نامق كمال وهو في القمة من الاستعداد والتيقظ الذهني ، متحررا من سلاسل الماضي المندثر ، مزودا بالزاد الجديد المجدي ، متسلحا بالفكر النير الذي يبدد دياجير الجمود والاوهام .

وبسبب من تعصبه الشديد لهذه النزعة ، اضمر للأدب التركي الذي اليه اصل شهرته ، عداء سافرا ، فطفق يتهجم عليه مقللا من شأنه، ويهدر اهميته داعيا الى هدمه ، اعتقادا منه بأن الفكرة الجديدة التي يتبناها ويروجها لانسجامها مع طبيعته ، انما سيكون لها أثر بعيد في الانهاض بواقع الادب التركي ، وتكوين خصائص مستقلة له ، على أن دعوته هذه تركزت في مقدمات مؤلفاته : « بهاري ديوان » و «جلال الدين خوارزمشاه » و « تنقيد خرابات » و « تعقيب خرابات » .. كما تركزت في مقالاته الضافية .. المتعددة التي أثارت نقاشا طويلا مطولا ، خرج من معامعه ظافرا مظفرا .. كل ذلك في سبيل ايجاد أدب بطعم بمسببات المدنية الغربية ، وتحويه بذور التفاعل والتوسع والتعمق ... هكذا استبد به الهوس الادبي ، فرغب عن الحاجات الشعبية ، والاذواق العامة ، مشيحا عنها ــ على ما أدعى ــ لبعض الاعتبارات الفنية ، العائقة لتطور أدب جديد متجدد ..

غير أنه ما غالى فيما نادى به ، حتى يفسد الذوق للنهاية ، وما اطرح القديم اطراحا يصح معه أن ينسب الى التجاهل الكلي ، ويمكن الاستدلال على هذا كله ، ببعض من رباعياته ، ومقطوعاته الغزلية ، وقصائده ، منها قصيدته المعروفة « الحرية » التي أودعها عواطفه الوطنية الصادقة ، والتي هي بنت القديم قلبا وقالبا :

آه ، أيتها الحرية .. يالك جذابة ، رائعة ..
اذا تحررنا من ربقة العبودية ، فبتنا اسرى عشقك ..
اغمري افئدتنا مسرات ، ولا تضني علينا بلقيا . .
لا تنأي بجمالك عن نظرات الخلق .. ؟ !
آه .. يا رجاء الغد ... يا حبيب الروح ...
تنتشلين الدنيا من نكبات ، واقدار ..
ان لك الحكم كله .. اخلعيه على البسيطة ..
صان الله اقبالك من لجة الصروف والنوائب ..
انهض ، ايها الاسد الجريح .. المنتفض ..
فقد عاثت كلاب الظلم فسادا وطغيانا

وانما كان مقصده الاعتدال ، حتى أنه نعى على من يفرطون في الانجراف بتيار الأدب الغربي ، غير مقدرين التبعة العظمى التي قد تتمخض عنها .. ثم انه حين طبق أسس النظريات الجديدة .. المستمدة من النزعة الرومانتكية على الكتب الصادرة ، ببلاده ، لم يتحرر اطلاقا من أحاسيسه وافكاره التي تشده شدا محكما الى تربة الوطن ، والى الوعي القومي .

وبالرغم من عدم تخليه عن تصوير خوالجه النفسية ، كاثبات لوجوده ، فانه طرق جوانب الحياة التي ألفاها ملائمة للتعبير عنها .. والظاهر أن الجانب الاكبر الذي نال زائد اهتمامه ، وصب فيه طاقاته الشعرية والشعورية ، وركز فيه نضاله المرير الشاق ، هو : الوطنية والحرية .

فبهذا الشعر الحماسي اللافح زلزل كيان الدولة ، وصفع الطغاة ، ثائرا عليهم ، مناهضا استبدادهم ، من غير أن يهادنهم ، حاملا على الرجعية والخيانة حملات شعواء لا محل للرفق بها ، مضرما مكامن الشعب ، شاجبا كل ما من أمره أن يعرقل تقدمه وتطلعه ، مطالبا

بتأسيس الادارة « المشروطية » الحازمة .

والذي هذا رأيه فمن الحتم ان يعتنق الواقعية المغرقة ، في الادب والفن .. انه استهدف فيما انتج خدمة الشعب ، ورفع كلمته الحقة ، واكد على أن ما يكتب له ، ينبغي أن يستقى من ينبوع الحقيقة والطبيعة ..

وفي صناعته الشعرية كان بارعا غاية البراعة ، يقل شبيهه فيما سبق من العصور ، ويمكن أن تعقد موازنة بينه وبين اساطين الادب التركي ، فهو في اسلوبه وطريقته قوي الوصف والتصوير ، عميق النفوذ ، مستعر الوجدان ، مشرق الديباجة ، يتكلف السجع والظرافة ، وتكتنف نتاجه الفاظ عربية وفارسية فخمة ضخمة .. وللدلالة يقول :

شيمدي ويران كورديكك مأوالر آبادان اولور
جلوه كاه أمن واسايش اولور جمله يداد
وادىء ايمن اولور بو محشر آباد فساد
كوستهرر احكامني فيض علو اتحاد
بر شهنشاه جهانله بر جوان سيان اولور[1]

مؤلفاته هي : « منتخبات تصوير أفكار » و «مقالات سياسية وادبية » و « اصول مشورته دائر كتابلر » ..

وله روايات : « انتباه » او « علي بك » وتعالج معضلة اجتماعية تتجلى فيها روح التشفي والاثرة ، ويبدو فيها تأثر نامق كمال بالروائي الفرنسي الكسندر دوماس ١٨٠٢ ــ ١٨٦٠ في قصته « غادة الكاميليا » ثم « جزمي » وهي رواية تاريخية صحفية و « سر كذشت » و « رؤيا » وقد ترجمها معروف الرصافي ١٨٧٣ ــ ١٩٤٥ الى اللغة العربية ..

واما مسرحياته فقد المعنا اليها ، عدا واحدة ، تلك هي « قاره‌بلا » ومن اثاره التاريخية « عثمانلي تاريخ مقدمه‌سي » و « ملوك اسلاميه تاريخي » و « عثمانلي تاريخي » و « دور استيلا » و « بارقة ظفر »

---

(١) راجع ترجمته على الصفحة ٢٧

و « فنيژه » ..

وكتب دراسات في صلاح الدين الايوبي ١١٣٧ ـ ١١٩٣ وياووز سلطان سليم ١٤٦٧ ـ ١٥٢٠ والسلطان محمد الفاتح ١٤٣٠ ـ ١٤٨١ ، وغيرهم ، ضمها في كتابه « اوراق پريشان » : الاوراق المتفرقة ..

وترجم عن الفرنسية روح الشرائع لموتتسكيو ١٦٨٩ ـ ١٧٥٥ و « رومانك اسباب اقبال وزوالي » لجان جاك روسو ١٧١٢ ـ ١٧٧٨ ، و « شرائط اجتماع » لقوندورس و « پالمير خرابه لري » و « حكمة الحقوق » و « تاريخ افكار بشر » الى جانب ترجمته مقطوعات من بافون وكتاب « بهار دانش » عن اللغة الفارسية .

وله في مجال النقد : « مه پريزون مؤاخذه‌سي » و « تخريب خرابات » و « عرفان مكتوبي » و « رينان مدافعه نامه‌سي » ..

وفي هذه الرسالة الاخيرة دافع نامق كمال دفاعا جليلا .. مشرفا عن العرب ومدنية العرب ، ودحض مزاعم المفكر الفرنسي ارنست رينان ١٨٢٣ ـ ١٨٩٢ وسفه اراءه ، وفندها تفنيدا واقعيا يدل على سعة اطلاع، وعمق ادراك .. وآثرنا ان ننقل شيئا من اقوالهما ، ليقف عليها القاريء :

قال ارنست رينان :

« .. بدلت الحال في سنة ٧٥٠ ميلادية حتى نصرت فارس العباسيين على الامويين فغلبوهم . اذ انتقل مركز الاسلام الى وادي الرافدين الحافل بأثار مدنية عظيمة من مدنيات الشرق ، تلك هي مدنية الدولة الساسانية التى كانت بلغت اوج كمالها ايام « انو شروان » .

كانت الصنائع هنالك متقدمة ، فأضاف الى تقدمها « خسرو » اكمل منتوجات الفكر ..

التجأت الفلسفة بعد طردها من الاستانة الى فارس فجاء « خسرو » فزاد عليها بما أشار بترجمته الى الفارسية من كتب الهند ، وكان النصارى وهم اكثرية الاهالي واقفين على علوم اليونانيين وحكمتهم .

أما الطب فكان بأيديهم وحدهم . كان الرهبان يعرفون المنطق واللغة الهندية . ومن مفاخرهم كما جاء في « الشاهنامة » أن « رستم » — في الدور الساساني — استعان بجاثليق مهندس منهم على انشاء جسر . ان تلك الترقيات الجميلة في فارس ، وان كان ألاسلام قد وقفها عن الجريان والتقدم اول ظهوره ، لم تلبث الا وعاد اليها سطوعها ، كما كانت ايام « خسرو » عند بلوغ العباسيين عرش الحكم .. ان الذي رفع العباسيين الى العرش ، هو الجيش الذي كان بأمرة القادة من الفرس ، فكان رجال الفرس محيطين بالمؤسس الاول ثم المنصور بعد ذلك . لان الساسانيين اذ ذاك دبت فيهم روح الحياة من جديد ، فكان من اشرافهم « آل برمك » المستشارون واساتذة الامراء من البيت المالك ورؤساء الوزارات ..

وقال نامق كمال في رده :

« .. كيف يمكن ان يحدث نقل مركز الخلافة الى بغداد تأثيرا في المدنية الساسانية التي يزعمها ، وهي لم يبلغ عمرها الـ ٣٠ او الـ ٤٠ سنة حتى وقفها ظهور الاسلام عن الجريان والتقدم كما قال .. ؟

لماذا يجب ان يعتقد ان الامة العربية النجيبة حين كانت عاصمتها في الشام لم تأخذ قسطها من المعارف اليونانية ذات المآثر العظيمة في مدنية العالم الانساني . فاحتاجت الى الاستفادة من علوم المدنية الساسانية التي هي ليست الا مجموع مترجمات الكتب اليونانية .

اكانت آثار المدنية الفارسية في وادي الرافدين اكثر من آثار المدنية اليونانية في الشام ؟!

اننا لا نجد ما يثبت لنا زعم المسيو « رينان » : ان العلوم بلغت في فارس اوج الكمال على عهد « انو شروان خسرو » غير قوله

وحـــده ..

أتستطيع امة ان تبلغ ذلك المبلغ بمجرد استفادتها من بضعة كتب يونانية او ترجمتها بضعة كتب هندية ..؟

الى أي المصادر يستند المسيو « رينان » فيما يزعم ..؟!

ماذا فعل الدهر بكتب فارس التي كانت لديها اذ ذاك ؟!

يخترعون اكـذوبة كأكذوبة الاسـكندرية فيتهمون المسـلمين بحرقهـــا .. !

أتستعين الامة المتمدنة ذات العلوم بمهندس من امة غيرها لينشيء لهـــا جسرا . .. ؟!

ان قول « رينان » ان : « الفارسيين اذ ذاك كانوا على شيء من العلم لا يعتقد به الامام ابراهيم العبـاسي الذي قام اول مـــرة يروم الخلافة . فقد كتب الى نقبائه في خراسان : « لا تبقوا على احـد من العرب ، فان معرفتهم وذكاءهم يمنعاننا من النجاح . أما الفارسـيون فأهل جهل كالحيوان تستطيعون اقتياده بالازمة »

أيريد ان يقول « رينان » : بأنه يعرف الدرجة من سلم العرفان التي كان فيها الفارسيون اكثر من المعاصرين لهم .. ؟!

ثم أمن المعقول ان يقال : اكثرية الاهالي ايام الساسانيين كانـــوا نصـــارى .. ؟!

لو كان الامر كذلك لما قدرت الحكـــومة الساسانية على حفـــظ استقلالها وكيانها من امبراطورية الشرق حامية النصارى ؟!

أليست بمبالغة جاهل دعواه ان آل برمك كان منهم المستشارون واساتذة الامراء من البيت المالك ورؤساء الوزارات ، مع انهم لم يكن لهم من شأن عظيم الا في دور الرشيد ..

قال ارنست رينان :

« .. ان الامـــة العربية لم تنجـب عالما عظيما فيلسوفا نابغـــة غـير الكنـــدي .. » .

وقال نامق كمال في جوابه :

« .. ان القاعدة التي يستند اليها في ذلك لو كانت صحيحة ، لوجب ان لا يكون ناپليون فرنسيا ، وأن لا يكون بسمارك المانيا .. لان الاول كورسيكي ، ايطالي ، والثاني سلافي . ومثلهما كثير من فلاسفة اوربا وعلمائها المشاهير[1] .

---

(١) انظر : محمود السيد احمد . جريدة الزمان لابراهيم صالح شكر . العدد الثاني .. في ١٥ تموز سنة ١٩٣٧

توفيق فكرت

داعية الحرية والأدب الجديد

١٨٦٧ - ١٩١٥

يعتقد بعض النقدة الذين يصدرون احكاما ملتوية غير منطقية ، أن توفيق فكرت من شعراء فترة « الادب الجديد » في تركية . ولكنه فى الواقع من اقطاب الادب التركي على تباين مذاهبه ، وامتداد عصوره المتعاقبة .. ذلك الادب الحي الذي له ملامحه المميزة ، وسماته الواضحة وصوره الجميلة التي لا يمكن ان تغيب عن اذهان اولئك الذين دأبهم تكريس حياتهم في سبيل الادب الانساني الحر الذي يصعب ان تقيده قيود مكان ، او سطوة زمان ، والـذي لا يتطلع نحـو اداء مهمته من تصوير وتعبير في ظل الاستبداد وفي جو خانق للحريات ..

ولد توفيق فكرت سنة ١٨٦٧ بأستانبول ، من ام وأب تركيين .. فجده احمد أغا من چانقري ، وقد هجرها الى استانبول مستوطنا بها، وابوه ـ ويدعى حسين افندي ـ من رجـالات الدولة العثمـانية .. انخرط في حياته في سلك الادارة والوظيفة ، وتقلد مناصـب عديدة ، كان آخرها متصرفية اورفة ..

انتمى توفيق الى المدرسة السلطانية ، ليتلقى بها تعليمه الابتدائي، ومنها انتقل الى ثانوية « غلطه سراي » ، فتخرج فيها سنة ١٨٨٨ حائزا الاولوية ، وعليه مخايل النبوغ والاحساس العميق ، وتزوج في عامه التاسع والعشرين من ابنة خالته « نظيمة » ، وانجب منها طفلا اسماه : « خلـوق » ..

وما ان انهى الدراسة الاعدادية حتى عهـد اليه القيام باحـدى

الوظائف في الوزارة الخارجية ، فأظهر فيها نشاطا واخلاصا اكسباه خبرة ودراية .. الى ان انيط به بارشاد من بلبل باشا ، أحد أقاربه قلم الصدارة في الدولة العثمانية .. ثم عين معاونا لمجلس استشارتها ، وهو مالك نواصي مختلف الشؤون ، ومن جهة اخرى قام بتدريس اللغتين : التركية والفارسية ، اضافة الى درسى الانشاء والخط في كلية تجارة كدك باشا .. وبعد نجاحه في امتحان انتقاء مدرسى اللغة التركية ، عين مدرسا في ثانوية « غلطه سراي » ..

كان توفيق ينشر قصائده في مستهل حياته الادبية في صحف كثيرة، يذيلها تارة بأسمه الاصلي ، وتارة اخرى بأسم مستعار ، منها جريدتا « ترجمان حقيقت » و « مرصاد » ، فضلا عن قيامه باصدار جريدة « معلومات » بالاشتراك مع اسماعيل حقي ، احد رفاقه ..

ثم انتسب الى اسرة تحرير مجلة « ثروت فنون » لصاحبها احمد احسان ، فأشرف على القسم الادبي منها .. فكان في اصداره واخراجه يبدي ما كان له من عزيمة ثابتة لا تبوء بالخذلان ، ولا يعروها الوهن ، الى أن أصبح بالمرة رئيسا لتحرير « ثروت فنون » ، وعاونه في ذلك كله ، الاديب الكاتب ارجمند اكرم ١٨٨٨ ـ ١٩٥٧ .

ولا يفوت عن الذكر أن توفيق فكرت ، بتوليه رئاسة تحرير « ثروت فنون » انما ادى عملا خالدا ، كان له صداه في مجالات شتى ، وسر اولئك الذين كانوا يعرفون توفيق عن كثب ، وما تنطوي عليه جوانحه من الرغبات الجوامح والآمال العراض ..

فقد دعا توفيق دعوة جريئة مخلصة الى الادب الجديد الذي ينبغي ان يصور كل شيء من غير استخذاء واستكانة ، وانهيار امام مثبطات الايام وعادياتها ، ودعا الى الفكر الحر المتحرر الذي يبدد ظلمات الفوضى والجهل والتأخر ، ويحطم معاقل الظلم والاستعباد والانحلال لتهيئة العقول للتخلص من ربقة الجمود والرجعية ، وتقبل كل ما هو جديد ،

يفضي الى الخير والصلاح والحرية ، بغية التبرز الى العالم كله :

نعم سيقبل الصباح ..
فعن النهار تتمخض الليالي ..
ما يتراءى عبر السماء ،
لا يدرك ــ من حيث العقبى ــ ميلاد الحشر ..
يوما تبدي لكم السماء تألمها قائلة : لا تكتئبوا ..
ان الشمس نشوة الحياة ..
ولكن الخلائق تغرقها لجج الاشجان ..
سنضوى نحن كلنا ..
واتتن تملأن سماء الغد ،
يا ايتها الشموس الصغيرات
استيقظن واحدة اثر اخرى .. ؟
للآفاق شوق ابدي ، يهدهدها نحو النور ..
الاغتباط روح الامل في هذا العصر ..
ازيحوا الغيوم السود ..
انفضوا ظلال المخاوف والاحوال ..
انطلقوا عبر غمرات الضياء نحو تحرر مبرور ..
هـذا أملنـا :
لئن انتزعنا الموت ، فسوف يعيش « المطلق » ..
وعاش الوطن نائيا عن غياهب السجن ..

ولكن جريدة « ثروت فنون » لم تعمر طويلا ، فما لبثت ان اغلقتها ادارة السلطنة المتداعية ، بعد أن احست بفعل الافكار الجديدة ، وكيفية تبلورها في الرؤوس ، وتأثيرها على النفـوس ، وما كان من توفيق ازاء هذا العمل الذي غاظه اكثر ممـا ينبغي ، الا ان آثر البقاء مخلـدا الى

السكينة في ركن من نزله « آشيان » ومعناه « العش »[1] .. حتى ينقل من هناك خطراته وصرخاته بحروف من نار على صفحات تغدو ملكا للتاريخ البشري مدى الازمان .

وبعد الانقلاب واعلان المشروطية سنة ١٩٠٨ اصدر توفيق مع الاديب الصحفي حسين جاهد ١٨٧٥ — ١٩٥٧ واللغوي المعروف حسين كاظم ١٨٧٠ — ١٩٣٤ جريدة باسم « طنين » ، الا ان توفيق خشية التورط في مآزق حرجة يتعذر التملص منها ، وتفاديا للقيل والقال الذي قد يثيره الوضع السياسي في ارجاء البلاد ، ترك عمله بالجريدة منصرفا الى عمل آخر ، يبعده عن المشاكل .. مكتفيا بالقاء ادارة مدرسة « غلطه سراي » على عاتقه ، فأدخل على هذه المدرسة بعض التحسينات والاصلاحات التي رفعت من مستواها ، وأثرت في حياة طلبتها بشكل لاقى استحسان الناس كافة .. ولكن مزعجات الامور الروتينية بالمدرسة من جهة ، ونشوب خلاف بينه وبين امرالله افندي ، وزير المعارف انذاك من جهة اخرى ، قسره على تقديم استقالته من الوظيفة .

هكذا ، فالرجل زاول مهنة التدريس ومارس الصحافة زمنا طويلا ، وقال الشعر الحي الذي يوقظ النائمين ويهمز الجامدين ويحرك المشاعر ، ويلقن الشبيبة التركية النزاهة والاستقامة ، وعاصر البغي الحميدي مستهجنا اياه ، مندداً به ، وقارع الاستبداد وناهضه بلا ترفق ، مستهينا ببقايا الخرافات التي تذيب كيان العالم الاسلامي ، مطالبا باطلاق الحريات ، واشاعة العدل ، وانجاز المشروعات ، وتمهيد طرق التطلع ، كل ذلك في سبيل ارساء قواعد الحياة الكريمة ، وتحقيق المثل العليا المتوخاة ..

يقول الشاعر من قصيدة « ضباب » وهو يصور جو الاستبداد المخيف .. يصور الارهاب الغاشم .. والاسى يكبل فاه بغلول الحيرة :

---

(١) زرت هذا « العش » في صيف سنة ١٩٥٧ . وكتبت عنه تحقيقا صحفيا .. نشر بجريدة « الزمان » البغدادية ، انظر العدد ٦٠٦٩ في ١٨ تشرين الاول ١٩٥٧ .

دخان كثيف ، عنود يطبق الآفاق ..
ظلام ابيض يدوم ، ويزيد ..
توارت تحت وطأته الاشباح .
كل شيء ، تلفه كثافة ..
كثافة هائلة تخافها العيون ..
وتتهيب النفوذ الى اغوارها ..
لكن أيليق بك هذا الستار الصفيق .. ؟!
هذا الستار المظلم ؟!
أيليق بك هذا التستر .. يا مسرح المظالم ..؟
ونراه في قطعته « نشيد الشعب » اكثر صراحة ، وأبعد نظرة ، واقوى ثورة ، واعمق اثرا وتأثيرا :
جابهنا ألوان الباطل ، فهل هذا قانون ..؟!
وفي اغوار البؤس تردينا ، فهل هذه دولة ..؟!
واذا كان قانونا ، واذا كانت دولة ، فحسبهما ذلك ؟!
وحسبنا نحن ، هذا الظلم الدنيء ، والجهالة المستدامة ..
وهل كان ابوك وقتا ما ، يمن على احد ..؟
حاشا ، لم يرثك ، من ابيك الذل والخنوع ..
ان الشرف في هذي الدنيا ،
هو الذي يحمي الافراد والجماعات .
تململ ، نافضا عنك غبار الهوان ..
ليتطاير من على محياك ..
انتشلوا الانسانية من وطأة الاقدام الثقيلة .. البليدة ؟
انسفوا معاقل الدناءة ، وحطموها ..
ولئن كان للظالم مدافع وقلاع وحصون ،
فان للحق وجها صارما لا يرد ، ولا يخذل ..
لا تغمض العين عن جلال الشمس الغامرة ..

مهما انساب نورها ..
لكل ليل نهار ..
نهار ما عرف أبدا الانطفاء ..
طريقنا الذي سلكناه :
هو طريق الحق .. طريق الشعب ..
عش ايها الحق المفدى عزيزا ..
عش أيها الشعب الحبيب خالدا ..

وتوفيق فكرت على رغم ما تقدم كان يأمل ان يحيا حياة رضية، رخية تلائم طبيعته الحساسة ، وترطب مزاجه اللاهب ، وكان يتوقع أن يتحقق ما يخالج فكره تقديرا لما يتمتع به من جليل المكانة .. غير أنه عاد ممتعضا متأسفا على عدم التوفيق بين هذا الذي يرجوه ويعلل به النفس ، وبين الواقع المر .. المريب الذي يتراءى له بعجره وبجره .. وبذلك يقول :

لا آمل اللطف من أي انسان ..
كذلك لا استعير الجناح ..
انما أنا احلق في سمائي حائما ،
وحدي حول « افلاكي » ..
ان الخنوع أوقر علي من اصفاد الحيرة ..
أنا شاعر الفكر الحر ، والعرفان الحر ، والوجدان الحر ..

هذا وقد ودع توفيق الدنيا سنة ١٩١٥ بعد اصابته بمرض السكر الذى اودى بحياته الحافلة بالاحداث ، ولو قدر لمثل هذا النابغ أن يعيش بعض الشيء ، ليشهد بنفسه انقلاب الالفباء التركي ، واستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية ، لكان من رواد هذا الانقلاب الذي أفاد اللغة التركية وآدابها افادة مطلقة ..

ورثاه الفيلسوف الدكتور رضا توفيق ١٨٦٨ ـ ١٩٤٩ بقصيدة ان هي الا قطعة من فلسفة تتمثل في تحزن وتعطف .. اذ يقول :

قالوا ، لا أثر لقبره ..؟!

جئت ارى ورودا متفتحة ..
جئت بحسرة اعفر وجهي بأرضك وكأنها الفردوس ..
قالوا : من يعقد عليك الامل ، يجثم لحظة باكية على قبرك ..
ينال مراده ..
أنا في زمان بكيت ، لادرك الغاية ..
في خريف هذه السنة السوداء ،
ترتعش شجيرات « الدفلى » في ارضك الخضراء . .
أنا على قبرك .. قبل ان تشرق الشمس ،
جئت اقطف زهور المناحة ..
ذكرتك مع من يحزنون ، لاجل عشق دموعا يسكبون ..
كأشواك تنبت تويجات صفراء ..
جئت انسج من الورد اكليلا على هامة قبرك ..
ذكراك كالموت ، سر يطويه الغموض ..
لا ادري اي سحر أشعته في نفسى ..
جئت اليوم ، وعداً عليك اقطع ..

تفتقت شاعرية توفيق فكرت في سن مبكرة ، حيث نظم وعمره اربع عشرة سنة ، فقد تهيأت له الاجواء ، وتكونت لديه العوامل الباعثة على قرض شعر صادق .. جميل مستقى من طبيعة الحياة التي عاشها واستوعبها ، فجاء شعره في اطار من القوة والخلق كنتيجة للاختمار الذهني المتصل والتجربة الشعورية الحادة . وانما هو في شعره من دعاة الحرية والفضيلة والوطنية ، ومن بناة الادب الجديد الذي انضوى تحت لوائه الاخرون ، حيث استهل حياته الادبية بوصف الطبيعة ، وبالقصائد العاطفية المشبعة بالاخلاص الذاتي ، مقلدا بها طرائق النظم القديمة وأساليبه المألوفة . ثم نحا منحى آخر ، فأتجه نحو الاجتماعيات والسياسيات ..

وعلى تصرم السنين تطورت صناعته الشعرية ، حتى اتخذت لها

شكلا جديدا ، واثرت في الادب التركي على وجه العموم تأثيرا بينا ، ادخله في قالب اوربي ، متشح بحيوية وحركة .. ويجمع النقاد الاتراك على أن شعر توفيق يصور حياته ، وحياة امته ، ويمتاز بالاصالة وبالتكامل الفني ، والذوق الشفاف ، اكثر مما يمتاز بالطابع الفلسفي والروح الحماسي .. وليس أدل على ذلك من أنه عندما نشرت رباعياته سنة ١٨٨٩ لاقت اعجابا منقطع النظير من قبل جمهرة القراء ، ونفدت نسخها من الاسواق ، مما دعا الى اعادة طبعها للمرة الثانية ..

يقول من قصيدة يمجد بها « السيف » واصفا اياه بما هو أهل له:

تحت المطرقة بحقارة تندق أياما ،
قطعة الحديد ، لتستحيل نصلا مهيبا
تقضى عمرها في الرقود جزاء لها ..
ولكن ذات يوم ، تكتسب قطعة الحديد اهمية ،
فتصبح للامة الكبيرة حارس استقلالها ..
الامة الكبيرة بعرضها ومالها وحياتها مرهونة بتلك القطعة .

وهذه آيات من شعره الغزلي ، يبدي فيها ما كان يعانيه في سبيل حب نبيل يسعد الانسان ، برغم ما يجابهه من صوارف الدهر .. حيث يقول :

أنا إن رمت الحياة ، فمن أجلك
تربطني بها خصلات شعرك ..
وإن كنت أرى في الدنيا نورا فانه من عينيك ..
أنا في سجن الهموم ، بحبال الحب مشدود ..
أتأمل ذكرى حبك ، فأقول لا يمكن الفناء ..
إن الوجود باق ..
اقاسمك الداء الذي لا دواء له ..
واقول ، مع ذلك الشوق :
ـ فالحياة باقية ..

وللشاعر قطعة رثاء مؤثرة ذات ظلال وانوار تسمو بالانسان الى حيث يريد :

كنا أطفالا يوم دفنوك ..
الرمال الخرساء ، والايدي غير المقيدة ..
أنا المشتاق اليك ..
فقد غدوت اسير الضعف والذل ..
متى اتجهت نحو القبلة بقلب دام ،
رأيتك ، وكأنك في هودج مجلل بوشاح ..
ربما كان الشوك النابت على قبرك دليلا ..؟!
ربما تكون الجمال في زيارتك ..
ومن يدري .. فقد يكفن الغبار الكاسح ذلك الشوك ؟!
فلا شوك يوجد .. ولا زيارة .. ولا قبر ..

صدرت مؤلفات توفيق فكرت في فترتين .. فترة الدور الحميدي، وفترة ما بعد الانقلاب .. اذ نشر في الدور الحميدي « رباب شكسته » و « خلوقك دفتري » نسبة الى نجله خلوق ، و « شيرين » وهو كتاب خاص بالاطفال و « تاريخ قديم » .. هذا الذي ترجمه الى اللغة العربية البحاث المستعرب الدكتور اسماعيل احمد ادهم ١٩١١ ـ ١٩٤٠ وننقل مقتطفات منه تعميما للفائدة :

« .. ان الذين يترنمون بالاساطير ،
التي خرج بها الانسان من ماضيه انسلالا ،
ويعملون على ان يصرفوا نظرنا عن انفسنا الى
آبائنا واجدادنا ..
ويريدون ان يذهبوا بنا في جوف الماضى المظلم
في طريقه الوعر الحالك الذى هو ليل الانسانية البهيم ،
زاعمين انه تراث الانسانية ..
جاهدين انفسهم حتى يثبتوا نبراس الانسانية

وطريقها المستقيم
في الماضي حاكمين أن ما سيأتي لا يفترق عما مضى ..
وكأن التجاعيد التي اجتمعت على مضي ستة ،
آلاف عام في جبين البشرية ،
مختلطة مع الشبهات والشكوك ..
لم تذهب معانيها سرا في الماضي ،
اعني في عالم الاحلام ،
انما مجراها في المستقبل امتداد الحاضر .
وهذا المنظر ، منظر الماضي الذى يعلو بين صفحات الزمن
كنت اوقفها قسرا في مخيلتي
واستوحيها ذكرياتها وحوادثها الماضية ..
فتجيبني في سماحة الفيلسوف وطورا في
غلظة الشيطان
متفقدة ليل نسيانها ..
وبصوت مختنق ، وبعبارات مكتومة ،
تأخذ في التحدث ،
وتعمل على اظهار الحوادث امام ناظري فيما بينما
صفحات الزمن ،
مبرزة ما فيها من الآلام ، مظهرة ما يتخللها من مصائب[1]

ويجمل بالقول : ان هذه الكتب لم تمنع البتة من النشر وانما حظر على الناس تداولها ، فأضطروا ، تسوقهم رغبة عارمة ، الى حفظ ما فيها عن ظهر قلب . على ان هذه الفترة تعد من اروع الفترات الادبية في حياة توفيق فكرت ..

وأما آثاره التي نشرها بعد الانقلاب فهي : « ربابك جوابي » و « صون شعرلري » و « مصاحبهٔ ادبية » ..

---

(١) انظر الدكتور اسماعيل ادهم . المجلة الجديدة لسلامة موسى . سنة ١٩٣٧ .

محمد عاكف
شاعر الاسلام والوطن
١٨٧٣ - ١٩٣٩

من الامور المسلَّم بها ، أن الشاعر الاسلامي والوطني التركي محمد عاكف ، صاحب فكرة مثالية .. سامية ، ومذهب انساني قويم .. اذ يقل نظيره في عمق الاحساس الديني ، وشدة الروح الحماسي ، وتدفق الطاقة الشعرية ، والقدرة على التعبير المطلق في ميدان الادب التركي كله . ولذا فقد كان باجماع النقاد والمفكرين شاعرا فيلسوفا ، جليل الشأن ، يحق له ان يحمل لقب « العظيم » لمكانته الادبية الكبيرة .

نعم إن عاكف شاعر .. وشاعر عظيم ..!

فمصادر شاعريته معروفة لدى الخاصة الواعية دون العامة ..

وينابيع عظمته متشعبة وغزيرة ..

فان العظمة هذه مستمدة من اسلاميته ووطنيته ..

وجميل جدا أن تجتمع اسلامية خالصة ، ووطنية صادقة على صعيد واحد .. لأن ما يتمخض عنهما يكون حتما شيئا رائعا ، يفوق التصور وهو يسمو الى الافلاك ، ويفرض نفسه ، ويشغل موضعه .

نشأ الشاعر نشأة كريمة في بيئة تغمرها العفة وتسودها تقاليد موروثة ، وعادات طيبة ، فوالده من علماء الاتراك الذين وعوا حقيقة الاسلام ، وادركوا جوهره ، وتغلغلوا الى صميمه ، وقرأوا القرآن المجيد قراءة كلها ايمان وامعان .. وكلها غوص في أعماق المعاني ودخائل المقاصد ، وكان في مستطاعه أن يمتلك ناصية ابنه وهو لما يزل صبيا ، وان يؤثر في سلوكه واخلاقه ، وأن ينير طريق تشوفه بتعليمه اياه ،وكان لطفا من جانب عاكف ان ينحو منحى ابيه ويتشبث بتلابيبه ، مقتفيا

آثره ، معززا الايمان فيما أراده ، واعتقد به ، وأكد عليه ، حيث قيل : الولد على سر أبيه .

على ان عاكف انصهر في بوتقة الدين ، والتربية الصالحة ، وبات كتلة متوهجة من الذكاء في القلب ، والاخلاص في العمل ، والجمال في الاخلاق ، بحكم ذلك البيت الذي به نشأ .. ويقرر علماء النفس : أن التربية البيتية او شيئا من بقاياها ، كفيلة بالتأثير في سلوك الانسان ، اذ تلازمه ، وتتحكم في ميوله ، فلا يمكنه حينذاك الامساك عما قد تدفعه اليه .. من شب على شيء شاب عليه .

مات أبوه ، وهو في الرابعة عشرة من عمره ، ثم شبت في دارهم النيران ، وقبل أن تتقاذفه موجات الحياة ، وتلهو به الاقدار ، خضع لمشيئة الله ، وصمد غير ناكص لا يدب في جوارحه قنوط ، سالكا سبيل ابيه ، يقوده شوق مقيم نحو الامام .. فكان عصاميا يخلق ذاته بيده ..

هناك عوامل ثلاثة كونت عاكف تكوينا بوأه عرش المجد ، ونقش ذكره على صفحة كل ذهن .. هذا هو القرآن ، العامل الاول الذي جعل لحياته قدرا وقيمة ، وحباه تفكيرا منطقيا .. فلسفيا ، وأثر في طبيعة شعره التأثير المطلق .. شعره الذي سماته عاطفة جائشة ، وحماس مزيد واستقامة بعيدة ، توشحها روح اسلامية وثابة لا تتحلل ، ولا يعبث بها الباطل ، ولا ترقى اليها الاستكانة ..

وثاني العوامل : الرياضة التي كان لها نصيب لا بأس به في حياة عاكف الذي مال اليها ، واعار لها بالغ الاهمية ، اشباعا لهوايته التي ساورته في ريعان شبابه ، وكانت المصارعة أحب أنواع الرياضة اليه ، فالرياضة ، وان تكسب ممارسيها منعة وصحة ، فانها تجمل الاخلاق ، وتصقل الاذواق ، وتهذب العواطف ، وتهيىء الناس لمواجهة صدمات الحياة برحابة وسجاحة .. ثالثها : المدرسة ، ومعلوم ان المدرسة محيط ثان .. جديد بالنسبة الى البيت : ركيزة التربية الاولى ، واجبه اتمام ما بدأ به البيت ، وله كما للبيت الاثر الكبير الذي لا يتجاهله أي فرد

في توجيه الطلبة ، وتقرير مصايرهم ، وتحديد اتجاهات حياتهم ..
والمدارس ذات الدرجات المختلفة التي تعلم بها عاكف كانت سببا فعالا
في تنشيط قواه العقلية ، وارهاف مشاعره ، ويروى الشاعر نفسه كيف
أن معلمه بالمدرسة الرشدية « قدري افندي » غرس فيه روحا جميلا
مشبعا بالتحرر والتجدد ، لاتصافه بأحسن الصفات ، ويروي كذلك مدى
ما كان يتمتع به اساتذته الدكاترة في مدرسة « البيطرة » من صلابة في
العقيدة الدينية ، ومن قوة في الايمان بالوطن ، وعلى هذا الاساس يأتي
محمد عاكف في طليعة الشعراء الاسلاميين الذين خدموا الاسلام فيما
نظموه من اشعار تحويها دواوينه السبعة المسماة « صفحات »[1]، وتغنوا
بمجد المسلمين ، وحضوا الناس على مكارم الاخلاق ، ودعوا الى حب
الوطن والتضحية في سبيل هذا الحب الروحي المنبثق من اغوار الايمان
فأرض الاجداد والامجاد جديرة بالتقديس والتعمير ، ولا أدل على
وطنيته المثلى من قصيدتيه اللتين تعدان جوهرتين في رأس الادب التركي .
وهما « نشيد الاستقلال » و « چناق قلعة » ..

والشيء الذي يطالعنا في أدب عاكف أن شعره خال من الجنوح الى
التصوف .. خال من الخرافات التي ليست من جوهر الدين في شيء ، خال
من كل ما من شأنه تفنيد الحقائق المقررة ، والعقائد الثابتة ، لأن الدين
عنده هو العامل المطلق الذي يسمو بالاخلاق ، ويرفع الكمال الاجتماعي ،
ويعمل على تعزيز الوحدة الاسلامية وجمع كلمتها . ثم ان له نظرة في
اقامة حضارة شرقية اسلامية تلائم واقعها ، وهذه النظرة وان كانت مثار
نقاش ، فان تفانيه في حب الوطن ، وتعلقه بالشعب ، ومثله الاعلى في

---

(١) اسماء الدواوين هي : « الكتاب الاول » و « في كرسي السليمانية »
و « اصوات الحق » و « في كرسي الفاتح » و « خواطر »
و « عاصم » و « الظلال » .. والاخير ترجمه محمد محمد توفيق –
وهو مصري – الى اللغة العربية . كما أن الدكتور عبد الوهاب عزام
والعوضي الوكيل ترجما شيئا من شعره الى اللغة العربية .

الحياة ، كان سليما لا تشوبه شائبة .. ولهذا فهو في صنعته الشعرية من دعاة الادب للحياة ، أي تكون وظيفته التصوير والتعبير عن مناحي الحيـاة البشرية ..

ثم ان عاكف عين عضـوا في دار الحكمة الاسـلامية باستانبول للاشتغال في مجالات الاجتهاد الشرعي ، والنظر في امـور الدين ، وأنه ترجم القرآن العظيم الى اللغة التركية ، وما اتيحت الفرصة لهذه الترجمة أن ترى نور الوجود[1] .. وترجم كتابا يتعلق بالاسـلام لمؤلفه سعيد باشا حليم ، ودرس الادب التركي بجامعة القاهرة[2] ، ويجدر ذكره هنا أنه كان يتقن اللغة العربية اتقانا تاما تعلمها على يدي والده العالم ، الى جانب لغتين اخريين هما : الفارسية[3] ، والفرنسية .. ووضع كتـابا اسماه « المرأة المسلمة » قام بترجمته الى اللغة العربية المفكر العـربي محمد فريد وجدي ، وترجم بعـض اشعار محمد اقبـال الفيلسـوف الباكستاني ١٨٧٣ ــ ١٩٣٨ الى اللغة التركية .

هكذا فرسالة عاكف انسانية مباركة استخدمها لاجـل الذود عن افكار اسلامية ووطنية محضة ، ونشرها بين الخـلائق ، بـواعث من الحقيقة المطلقة ، متبعا في ذلك كله الاسلوب الفوار .. السيال ، البالغ ذرى النضج والتكامل الفني ، البعيـد عن عناصر الارشـاد والزخرف البيـاني واللفظي ..

هذه قطعة من شعره الرقيق ، تقر ما ذهبنا اليه ، وتؤيد ما سقناه ،

---

(١) مرده الى انه اراد أن تنشر مع الترجمة تفسيرات في الحاشية ، لكن الحكومة رفضت ذلك ، وما من عاكف الا ان اعرض عن نشر الترجمة

(٢) مكث عاكف بمصر سنين طوالا ، وكانت له صداقة ومودة عميقتان مع الامير عباس حليم باشا ، هذا الذي أنزله من نفسه منزلة جليلة ، كذلك كانت صلاته الروحية والفكرية وطيدة مع الدكتور عبدالوهاب عزام ..

(٣) وقد ترجم شيئا غير قليل من الشعر الفارسي الى اللغة التركية .

ان هي الا نفحات شاعر اصيل ، مفكر ، عصر مشـاعره ، واذاب روحه تدعيما للوحدة والصلاح والحق •• يقول من قصيدة « رمضان » :

يارب ••
بحرمة شهرك هذا العظيم ••
انقذ المسلمين ••
انقذهم من ضعف هائل يعروهم ••
وحد صفوفهم •• واجمع شملهم ••

★ ★ ★

يارب ••
انقذهم من وبال التفرقة ••
فيكفيهم انهيار اخشى ان يسلمهم الى اليأس ••

★ ★ ★

ما دمت منحتنا روحا كالحديد قوية ••
يارب ••
فلتتنزل علينا نفحات الاتحاد والتضامن ••

وهذه قطعة اخرى ، لا تختلـف عما سـلف في مرماها ، عنوانهـا « مولود » :

ارض الشرق هذه غارقة في لجة ظلام قاتم ••
نثرت على السماء نورا من جديد ••
ففيك ذلك الفيض العظيم ،
أنا الحيران لذلك الصباح المخمور
أيها الليل الذي طال ،
أنا ذاهب •••
فقد ألبست التقدم ثوبا من نور •••

ونظم الشاعر ، وقد غمرته وقدة الشعور العميق ، وسرى في جوانحه الايمـان بالوطنية ، وتقديس السـيادة ، وتعظيم البواسـل الابطال ،

« نشيد الاستقلال » وهو من غــرر قصائده التي يفخــر بها كل تركي ، وتنتصب شعرات أبدانهم عند سماعهم اياه • ولنا أن نقول ان الشــاعر إنما نال بهذا النشيد جائزة سنية ، غير أنه رفض تسلمها امعانا في حــب الوطن ، ومساهمة منه في تركيز الوطنية الحقة •• حيث يقول :

لا تخف ، فان الراية السابحة في قرارة الشفق ،
لا تنطفىء ، حتى ينطفىء آخر موقد ،
في الوطن •••
انها نجمة امتي •• سوف تتلألأ ••
انها رايتي ••• راية امتي قط ••

★ ★ ★

لا تنطوي يا راية الامة ،
أفديــك بنفسى ••
واغدو قربانا لك •••
ابتسمي لسعينا المحسوس ••
لا هذا الاستسلام والحلم ،
ولا هذا الضعف ، والشدة ،
واذا الدماء اريقت في سبيلك ،
فسيكون الاستقلال ،
حقا مبينا •••

وأما قصــيدة « چناق قلعة » فهي من التحــف الفريدة في الادب التركي •• ان بها من الوطنية أعمقها ، ومن العزة اعظمها ، ومن الايمان أصدقه ، ومن الجمال أسماه ، ومن المجد ارفعه •• وكفى بعد هــذا كله ما تسمعه مصداقا للقول :

جثث الابطال تقشعر لمرآها النفس حزنا ،
ولولا الركوع لما طأطأت لنا هامة ،
فقد صعقت ، وتألق جبينها ،،

ظهرا فنامت ،
يا الهي كم من « شموس » تغيب في سبيل « الهلال » ..
يا من تمرغ في التراب ..
لأجل هذا التراب ..
ولو نزل الاجداد ، فقبلوا ذلك الجبين ، فقد كان جديرا ..
ما اعظمك .. ان دمك الزكي ينتشل التوحيد ..

★ ★ ★

ان اسود البدر تضارعك البطولة ، وقد نعمت بالخلود ..
من يحفر لك ذلك القبر الذي لا يسعك ..
فتعال ندفنك في مطاوي التاريخ ..
وبرغم هذا لا يسعك ..
أثَرْتَ في التاريخ هرجا لا يعيه ، ومرجا لا يحمله ..
وانما الابدية تسعك ..
واذا الحجر المقدس وضعته كمهد لك ،
ولففت به وحي روحي ،
واتخذت القبة الزرقاء رداء لها ،
ودثرت لحدك الدامي بكواكبها ،
واذا جعلت غيمة « نيسان » سقفا لك ،
واليها مددت الثريات ،
وانت تحتها بدمك مضرج ،
واذا قربت منك القمر ليلا ،
ليبيت الحارس ، وهو ينظر الى يوم البعث
واذا منحت نور القمر للثريات ،
وجللت حمرة الغروب بجروحك ،
فعلت شيئا ..
ولـــكن ..
ولكن .. لن اقول ، فعلت شيئا ..

حسين جاهد

رسول الحرية الفكرية وباعث نهضة الادب والترجمة

١٨٧٥ - ١٩٥٧

الليل يزحف بطيئا .. ثقيلا ، كما لو كان جوفه يحمل مأساة الدنيا كلها .. كان ثمة مريض لم يذق منذ ليال طعم النوم ، وقد باركته الشيخوخة ، وانهكته العلة ، يسترسل في كلام هادىء .. متواتر ، له دلالته العميقة ، وهو يصارع الموت والداء ، ويناغي الروح الحيرى ، والخيال المتراقص ، ويطارد العبث الذميم ، والباطل المقيت ، ويعانق الابد المطلق .. ويخاطب من حوله :

« .. الحرية .. الحرية .. اخرجوني الى الفضاء المتراحب من هذا القمقم .. الحرية .. الحرية .. هذه مسألة اخلاق وسيادة . »

تطلع الليل بعض الشيء ، تاركا خلفه ما تبقى من ركام القتام .. واذا هبط الفجر ، وتسللت خيوط الصبح او كادت ، كان ذلك الطريح في احدى حجرات بيته القابع في قلب « شيشلي » بأستانبول ، قد اغمض عينيه الكليلتين ، متخطيا عتبة العالم الفاني .. وبنفسه امنيات شتى ، ما شاء أن يتوارى عنها قسرا ..

★ ★ ★

كان ذلك هو حسين جاهد[١] .. مفكر الترك المعاصر ، وبموته انطوت صفحة لامعة من صفحات التاريخ الفكري والادبي والسياسى .. وخسر الاتراك رجلا من خيرة الرجالات .. داعية من دعاة الصحافة الحرة .. مفكرا عفيف العقل ، نزيه النفس ، سياسيا ملما بما ظهر وبطن من احداث السياسة واسرارها ، اديبا فرض نفسه على كل من قرأه

---

(١) مات صبيحة ١٩ تشرين الاول سنة ١٩٥٧ .

او عرفه ..

والحديث عن جاهد شجون وفنون .. وله من البواعث ما يدعونا اليه .. ولكننا في غنى عنه ، لأن المجال اضيق مما نقدر .. ولان ايفاء حق شخصية فذة بكل نواحيها ، كهذه التي تداخلت في تكوينها اتجاهات عديدة ، يفضي بنا الى دروب الافاضة والاحاطة ، والى مسالك التوغل والتشعب ..

ومع ذلك كله نحاول تسليط الانوار على ما نحن بشأنه من تحليل وتعليل حرصا على قداسة الفكر الذي آمن به جاهد ، ومات من أجله ، وعلى رفعة الادب الذي شغفه حبا جما ، وعلى كرامة القلم الذي حمله بشرف ما بعده شرف .

يأتي جاهد – وهو من مدرسة المعتدلين التي اسسها ضياء كوك آلب ١٨٧٥ – ١٩٢٤ صاحب مذهب دراسة التاريخ المقارن – في طليعة المفكرين العاملين الذين دأبهم تجنيد قواهم ، وتكريس جهودهم في سبيل حياة كريمة ، ترتكز على قواعد راسخة من المبادىء الانسانية ، والمثل العليا .. فهو من رواد الديمقراطية الصحيحة .. الاصيلة التي تشع من جنباتها ومضات الحرية والعدل والمساواة ، وتكفل لافراد الامة الواحدة أسباب النجاح والعمل والعزة .. .. ان الحضارة البشرية التي تتمخض عن تحقيق الحرية الفكرية ، وتعزيز العدالة الاجتماعية ، وضمان الحقوق الفردية ، لا تبلغ قمة السمو والازدهار ، الا بتشرب مفاهيم الديمقراطية العميقة ، واستيعاب معانيها السامية ، وادراك مقوماتها الاساسية ، واتباع سبلها السليمة .

على أن النزعة الديمقراطية تسربت الى جوارح جاهد منذ حداثته متبلورة في كيانه ، فتمسك بتلابيبها ، مؤمنا بها أكبر الايمان : غير عارف عنها بديلا ، منقادا وراءها ، سابرا أغوارها ، ذاهبا بها ابعد مما تحتمل ، مفرطا على نحو يثير دهشا واستغرابا ، ومرده الى أن الديمقراطية هي الطريق السوي لاسعاد الاخرين الذين ينبغي أن يحيوا في ظلال الامن

والتآخي والتآزر ، وللحفاظ على القيم الخلقية ، والمشخصات الاجتماعية من براثن العبث والانهيار ، ولاقرار رغبات الامة وتنفيذها تطبيقا لمبدأ حقوق الانسان المشروعة ..

وتألب جاهد على الروح الديمقراطية ، ومناداته بالحرية الفكرية ومصاولته الطغاة والخطوب ، ومناهضته الظلم والاضطهاد طوال حياته ١٨٧٥ ـ ١٩٥٧ ليس بالامر الهين لمن يريد ان يمعن نظرا سديدا في طبيعة هذه الحياة التي تحفل بمعضلات جسام ..

لقد ادرك جاهد عهودا سياسية مختلفة ، كان آخرها العهد الجمهوري ١٩٢٣ ، ومر بظروف عصيبة رهيبة ، كان الجهر خلالها بالاراء الحرة ، والمبادىء الديمقراطية ، وتحبيذها ضربا من ضروب المغامرة التي لا مندوحة عن أن تورط صاحبها في مآزق ، وتسلمه لقمة سائغة الى فم البطش والهلاك والتنكيل .. ولقى جاهد جراء صراحته العجيبة ، وجرأته النادرة ، وقد اتسمت بهما مقالاته الكثيرة .. المتكاثرة ، في الدعوة الى الحريات العامة ، ولا سيما حرية التفكير والتعبير ، وخدمتها ، ومقارعة الاستبداد والارهاب والرجعية ، ألوانا من الحرمان والنفي والتشريد .. وتربصت به دوائر جائرة تخلص منها بأعجوبة ، حيث تعرضت مطبعته التي كان يصدر منها جريدته « طنين » قبل اعلان المشروطية سنة ١٩٠٨ للتخريب .. وقتل الرجعيون رجلا شبه له .. واعتقلته السلطات الانجليزية سنة ١٩١٨ الى جزيرة « مالطة » . وسيق لمعارضته العنيفة في العهد الجمهوري مرات الى ساحة القضاء خرج منها ظافرا ، مرفوع الرأس ، مؤمنا برسالته المثلى التي خطها بمداد من روحه وفكره ..

ومجالات جاهد في تعميق الايمان برسالته ، والتبشير بمراميها لتكتيل الافراد والجماعات حولها ، ما كانت ضيقة البتة ..

انه خدم الحياة الديمقراطية الحقيقية ، وحرية الفكر والتفكير مدى عمره ، بحرص واخلاص .. في الوظائف التي تقلدها ، وفي الاحزاب التي انتمى اليها في مختلف الازمنة ، وفي الدورات النيابية التي انتخب بها

عضوا ، وفي الكتب التي ألفهـا وترجمها كـ « الديمقراطية والقضـايا الاقتصادية » و « الديمقراطية » و « الديمقراطيون المحدثون » •• وفى الجرائد التي حررها ، وغذاها بمقالاته النارية ، القوية التي ترجم معظمها الى اللغات الاوربية كـ « طنين » و« ثروت فنون » و« يني صباح » و « يدي گون » و « اولوس » و « خلقچي » و «فكر حركتلري » والاخيرة اصدرها بنفسه اواخر سنة ١٩٣٣ ، حينما اكرهته احوال خاصة على الانعزال والانطواء ••

شيء مسلّم أن شهيدا من شهداء الديمقراطية وضـحية من ضحايا الحرية كجاهد ، يستحيل ان يتصاغر امام جبروت الطغيان وسورة العتو، مهما قست الحياة عليه بضرباتها المتلاحقة ، وغالت الاقدار في السخر منه ، والتطويح به •• لا لشيء الا لأنه شب على حب الحرية ، والهيام بروعتها، والانضواء تحت لوائها الخفاق : حرية المعتقد والرأي •• ولانه تعود على تقديس الفكر والتفكير ، وهما يتساميان دواما عن التافه والعـرَض •• ولانه تعلم كيف يخلص لمذهبه هذا من غير تنكر له حتى في احلك أيامه ، وبدافع عن وجهة نظره الى أن عانقه الموت الجبار ، دون أن تصرفه عنها مغريات الحياة المنوعة ••

يقول المستعرب الدكتور اسماعيل احمد أدهم ، وهو بصدد الكلام على مدارس الفكر بتركية :

« •• راج في الدوائر الفكرية بالجمهورية التركية ، رأي في حرية الفكر والتفكير بثه زميلنا حسين جاهد صاحب جريدة « طنين » السياسية سابقا ومحرر مجلة « فكر حركتلري » في محاضراته عن « اساليب الفكر في العالمين : الشرقي والغربي » •• ومؤدى هذا الرأي : أن حرية التفكير في تركية نتيجة لسلسلة من الفواعل ، فعلت في صلب التـاريخ التركي منذ اقدم عهوده ، فتمخضت عن عقلية الانقلاب الاخير •• فقد ثار حولها شيء من النقاش اشتد مع الزمن ، واشترك فيه اعلام النهضـة التركية الحديثة ، وكان لصوت قابيل آدم الباحث الاجتماعي صدى كبير

في الدوائر الادبية في تعليقه على هذا الرأي .. غير أن هذه الثورة ما لبثت أن هدأت وانقشعت من حولها غيوم الافكار .. وهنا عثر المفكرون على الاسباب الحقيقية التي من اجلها قام الانقلاب الحديث ، وتقومت حرية التفكير ، ووقف الباحثون على مقدار ما في رأي حسين جاهد من اوجه المرونة للالتئام من حول التاريخ التركي »[1] .

ويقول جاهد ذاته في موضوع له : « تحيا الحرية » :

« .. ومن الغرابة بمكان أن نرى الذين يبلغون دست الحكم بعد فوزهم في المعارك الانتخابية ، يستهترون بارادة الشعب ، ويتنكرون لرغباته ، ويصمون كل من يدعو الى الحرية بضحالة العقل وسقمه .. ولكن هل جال ببال اولئك الذين تولوا زعامة الشعب بارادته ، أن يسألوا أنفسهم عن حيوية الحرية ، ومبلغ خطورتها ، وتغلغلها في نفوس أفراد الشعب .. ان الحرية في نظر الشعب من أعظم نعم الله على خلقه في هذه الحياة الفانية .. انهم يرجون من كل جوارحهم حلول ذلك اليوم الذي يتمتعون فيه بحرية كاملة ، تبسط عليهم جناحيها ، ليرفلوا في حلل من الطمأنينة والدعة والخير »[2] ..

★ ★ ★

ولئن كان حسين من دهاقنة الفكر الحر ، ومن اعلام الديمقراطية الأصيلة ، فانه حقا أديب .. فقد قبض على صولجان الادب الحي ، وبعث نهضته ، وشاد له دولة ذات كيان ورفعة ..

اكتحلت عينا جاهد منذ نشأته الاولى بنور الادب ، واستشعر بذاته جنوحا اليه ، وولعا بما يثيره من الهواجس والانفعالات ، فشرع يعكف على التزود من منابعه قارئا .. باحثا .. منقبا .. دارسا كل ما يهمه ، ويشبع نهمه ، صقلا لملكته ، ثم انتمى الى رابطة « الادب الجديد » التي

(١) انظر مجلة « ادبي » للدكتور احمد زكي ابو شادي ، المجلد الاول سنة ١٩٣٦ .

(٢) انظر كتاب « حسين جاهد » لسعاد هيزارجي .

لها رسالتها الخاصة .. وكتب في مجلة « ثروت فنون » كثيرا من المقالات والابحاث والقصص التي انتظمتها فيما بعد كتب أسماها : « في غمرة الخيال » و « الحياة المخيلة » و « خصوماتي » .. وتنبئنا المصادر بأن هذه الكتب انما كانت عاملا مباشرا في سطوع نجمه في سماء الادب ، وقد اتشح ما كتبه في فترة « الادب الجديد » بالبهرجة اللفظية ، والصور البيانية ، حتى عدل عنها ، لخلوها من فائدة متوخاة ، ولذا اتخذ جاهد بعد تفجر موهبته الفكرية موقفا طيبا من الاثار العتيقة التي أمعن في الانكباب على مطالعتها ، ثم ما لبث أن قلب لها ظهر المجن ، مشيحا عنها، محاولا التحرر من سلطان الثقافة الشرقية ، والتنكر لفضل الادب القديم، وتأثيره الشديد فيه لا لشيء الا لانجرافه الغريب بتيار الادب الاوربي العارم ، وتشبثه القوي بأسبابه عن طريق اللغة الفرنسية .. فهو يذكر في كتابه « يقولون » : « ليس لي أي رأي في الادب القديم لانني ما قرأته وما اعرف عنه شيئا يجدر بالتنويه به ، ولست بمدين له في شيء ، وربما صح لي أن ازعم اني مدين الى الادب الغربي اضعاف ما أنا مدين الى الادب القديم [1] » .. وجاهد لا يكتفي بما أراد ، وانما يتبسط في احدى خواطره ، معززا زعمه بكلام يصعب أن يقبله منطق الحقيقة والواقع ، فيقول « ان المؤلفات الشرقية لم تترك في نفسي أي أثر ، واستطيع القول ان ما قرأته هو اوربي بحت ، وما تعلمته من ذلك الينبوع الثر .. ».

على ان ما ابداه جاهد من آراء كهذه ، ما كان يخلو من الاحراج والاثارة بالنسبة الى الكتاب ، فقد وقع عليهم كالصاعقة ، فثارت ثائرتهم، وانطلقت ألسنتهم في مناقشات حامية ، محتدمة ، خاض غمرتها جاهد مدافعا عن الفكر الغربي ، واهمية مزاياه ، بحماسة لا مزيد عليها ، وجرأة لا توازيها جرأة ، موضحا وجهة نظره ، مبينا صحتها وسلامتها ، وأسفرت

---

(١) والطرافة أن جاهد دحض رأيه هذا بنفسه ، بعد ان تقدم به العمر ، زاعما ان ما افضى به كان مجرد دعابة اطلقها بدعوى انتشائه بخمرة الفكر الجديد ..

المناقشات الدائرة عن تراجع اولئك الكتاب المعارضين الذين لهم ما لهم من المنزلة ، متخاذلين .. معترفين ، بأن « الثقافة الغربية هي فوق الثقافة الشرقية .. » ومما قاله جاهد بهذا الصدد : « ان الصحف التي تصدر خافتة ، لا اثر لها ، كتلك الشعلة المنطفئة ، اذ أنها لا تدلنا على الطريق الصحيح الذي فيه خيرنا ورقينا ، وليس في أسرنا صاحب ادراك ليدلنا على ما كان ينبغي ان يدلنا عليه ، فالآباء والامهات تربوا تربية عتيقة ، ولم يكن في مستطاعهم أن يدلونا على هذه الطرق السليمة .. المقبولة ، التي من شأنها التعليم والتحصيل ، ونحن في الوقت الذي كنا نتردد فيه عن الارتياد الى دنيا الفكر والعرفان ، ظهر في طريقنا الحقيقي تدريجيا ، ذلك الدليل الذي تمكن من ارشادنا .. فقد انقذتنا اللغة الفرنسية ووسعت آفاق عقولنا،ومهدت سبل آمالنا ، وسددت اتجاهاتنا .

ولكن اغراق جاهد في العدو خلف الثقافة الغربية وايمانه بها ، لم يمنعه ابدا من اسداء النصح للمثقفين والادباء ، لأن يتخذوا موقفا معتدلا تجاهها ، تمهيدا للقيام بابراز مظاهر الحياة التركية من خلال المقالات والبحوث التي أراد جاهد أن تصطبغ بصبغة قومية ، وتنقى من الالفاظ الدخيلة .. حيث يقول : « وليس علينا أن نأخذ من الغرب كل ما يقدمه لنا ، ثمة القشور واللباب ، والعرض والجوهر ، والرخيص والنفيس ، وانما نأخذ الاشياء التي تعم ويستفاد منها ، ولن نقلد الغربيين بل يجب أن يكون لنا أدب يمثلنا ويصورنا ، أليس لنا تفكير مبدع .. واشياء حرية بالتقديم الى الادب العالمي ؟! إن للعرب ادبهم الرفيع الذي يفيض حيوية وخصوبة ، وكذلك للغربيين ، ولكن الادب التركي ينبغي ان يكون تركيا .. محضا مستمدا من كياننا وطبيعتنا ، لننهض به ونرفعه الى مصاف الآداب العالمية .

وعليه فان جاهد المتتبع .. المتشبع بالثقافة الغربية ، من انصار المذهب الواقعي في الادب ، فقد انفرد عن معاصريه بنظراته النافذة الى

الحياة ، واستقلاله في الكتابة ، وخدمته المديدة التي تعدت الستين سنة ... اذ دعا الى الادب الجديد ، الملقح بالعقلية الحديثة ، دعوة خالصة ، مخلصة ، غير مكترث لما قد تترتب عليه ، داخلا بسببها مطارحات ادبية طويلة ختمت بانتصاره ، فهو يقيم هيـكل موضوعاته على التحليل والتصوير والشمول والمنطق وابراز الشخوص ويودعها دلائل هي بنت الحقيقة ، ومن صميم الواقع ، تزينها سلامة لغة بليغة لا يرهقها تزويق وترصيع ، ولا يقتصر ادبه على طائفة دون اخرى ، بل كان لكل الطبقات فيه نصيب حتى الاجانب ، وللتدليل على ذلك ان كتابه « الحياة المخيلة » الذي كتبه بحكم تأثره بالادب الجديد ، يحوي احدى عشرة قصـة : اثنتان منها للدهماء ، وتسع للطبقتين الوسطى والاستقراطية ، والباقيات الهمتها شخصيات اجنبية ..

إنه سخر قلمه ، وعصر فكره للتعبير الصادق عن مشاعر الامـة بأجمعها وسرد قضاياها وما ينازعها من الاماني والرغبات ، واسـتغله كوسيلة لتلقين الناس افكارا اجتماعية نيرة املتها عليه طبيعة واقعهـم الراهن من جهة ، ودعته اليها انطباعاته الذاتية وتجاربه الشـخصية من جهة اخرى ، وما قصصه « المعلم » و « البـلام » و « والتفـرج على السماكين » التي توافرت فيها عناصر الواقعية والذاتية الا تحف ادبيـة فنية ، تلقي اصالة تعابيرها وترابط افكارها ظلالا من الروعة والسـحر على النفس .. ومثل جاهد في هذا كله مثل الشاعر توفيق فكرت الذي صور في شعره ما كان يجول بخلد الناس تصويرا ما به تهويل وغلو .. ويا ليته في كل ما كتب ونشر . وقف عند حده ، اي عند مذهبه الواقعي بلا تجاوز ، وكأني به ما ارتضى بذلك الذي اشبع عقيدته اشباعا ، وانما راح في الشطط والافراط متقبلا الاشياء دون المبادىء على علاتها ، ولعل ذلك يتضح في بعض مؤلفاته كـ « زفاف بالقرية » و « حـب الدار » و « المصاحبات » و « المشاهد » .

وبالرغم من هذا كله ، فاننا نجد جاهد لا يتردد في الدفاع عن نظرية « الفن للفن » او « الادب للادب » ، واعارتها جانبا من الاهمية ،باعتبار ان الادب الحقيقي لا يتقيد ، ولا ينبغي ان يصبح كذلك ، ولا يخص شيئا دون شيء •• فهو يقول : « الادب يجب ان يكون متحررا من استغلال ، وان يكون ادبا في ذاته ، لا وسيلة الى غرض من الاغراض ••• غاية الادب هي استثمار الادب والبحث عن الجمال » ••

ان تاريخ الادب التركي سيبوأ جاهد عرش الخلود ، ويجلسه حيث هو خليق به من رفيع المجد والمكانة ، ويغدو له نصيرا كبيرا ، بعد ان كان هو اكبر نصير له •• انه اسدى من الخدمات الجلى ما لا يقدر • والعبرة فيما تخلقه من الاصداء ، في كل وسط ، وفيما تتركه من التأثيرات في كل نفس ••

جاهد آية من آيات العبقرية ، استأثر بحب القراء كافة ، منتزعا تقديرهم ، رافعا شأنهم ، بانيا لهم مجدا ادبيا زاهرا متين البنيان ، لاتهزه الاقدار ، بعواصفها الهوجاء ••

ولئن مات ، وابتلعته ظلمات القبر ، فان آثاره لا تموت ، وتأثيرها لن يزول ، لانها باقية •• حية مدى الحقب ، تشق سبيلها الى العقول والقلوب •••

ترك جاهد ذخيرة ادبية زاخرة ، تشهد له بثقافة وسيعة ، وقابلية خارقة ، وذكاء حاد ، وباع طويل •• وحسبه هذا العدد الضخم من الآثار التي لها اهميتها في الفكر الانساني الحديث ••

لقد طرق ابواب الكتابة كلها ، من أدب المقالة والقصة والنقد ، ودبج الخواطر والانطباعات ، وانشأ الرسائل والفقرات ، وكتب في التاريخ واللغة ، وترجم عددا كبيرا من امهات الكتب العالمية من سياسية وتاريخية وقصصية الى فكرية ونفسانية !!

على أن ما وضعه من المؤلفات ، اضافة الى ما المعنا اليه ، كثير ، منه قصته : « ناديدة » التي سار بها على نهج الاديب المعروف احمد

مدحت ١٨٤٤ ـ ١٩١٣ مقلدا طريقته واسلوبه ، ولكنه فشل في الباسها ثوب القصة الفنية ، فانه تورط في منتصفها ، وراح يدخل الفلسفة ، ومن كتبه ايضا : « مشاهد الحياة الحقيقية » و« خواطر ادبية » و« مذكرات الاعتقال » و « قصة السنين العشر » و« خواطر المشروطية » و« عهد المشروطية وبعدها » و « من مرجان الى الباب العالي » و« طلعت پاشا » و« النحو والصرف في اللغة التركية » و« النحو والصرف للمبتدئين » و« التاريخ العمومي » و« مقالات في النقد والخصام » . هذا عدا ما له من مؤلفات اخرى .

ثم ان اجادته بعض اللغات الحيـة ، التي كان قد ملـك زمامها ، وتمكن منها الى أبعد مدى ، ساعدته على الترجمة المتصـلة ، وأغلب الظن ان ما ترجمه يفوق ما الفه عددا ..

اذ ترجم القصص : « كرازيـلا » للامارتين و « مدام كرايزانتم » و« سماك الجزيرة » لبرلوتي و« صـمت الالهة » لاناطول فرانـس ، و«مسند المجذاف» لثوليو موري و«المتوحشون» لآني ڤيڤانتي ، وترجم « حكايات من الادب الايطالي » لعدد من الكتاب و«التاريخ الاسلامي» في عشرة اجزاء للمستشرق لليو كايتاني و«التاريخ العمومي للهند والمغول والتتر والترك » لجوزيف دي كوينكز و« تاريـخ انكلترة » لاندرية موروا و« تاريخ فرنسا » لجاك بينڤيل و« تاريخ اقوام اوربا المقارن » لشارل سينوبو و« مصادر الحـرب الكونية الاولى الخاصة بالشرق » لجان پيشون و« حياة الزعماء الخاصة » لأي بركسون ، و« كاترينـا الكبرى » للوشيان موردان و« رسائل الترك » لاوجيير شيلون و« تاريخ المذاهب الاشتراكية » لڤيلڤرد پارتو و « الاشـكال الابتدائية للحياة الدينية » و« وتربية الاخلاق » لاميل دوركهايم ، و« حرية الوجدان »(١) لليون ماريلير ، و« الديمقراطيون المحدثون » لڤيكونت جيمس برايس

---

(١) قام عزيز سامي « ابو صميم » بترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربية عن النص التركي .

و« الديمقراطية والقضايا الاقتصادية » لارثر توانيك و« منشأ الصناعات الكبرى » لارجو هيرن و« الحرية » لجون ستيوارت و« حكومة انكلترة» لآبدوت لورنس لويل ، و« العلم والدين » لاميل بوترو و« الجسم والروح » و« الآراء الحديثة في نفسية الاطفال » لالفرد بنت و« كتاب المواطن » لاي ابولي و « حرياتنا السياسية » لموريس كودال ، و« الديمقراطية » لاشيان ڤاشرو و« التربية البيتية » لڤيلكس توماس و« روسيا عالم قائم بذاته » لوليم بوليت و« علم النفس التجريبي » لهارولد هوڤدي و« علم النفس الطفل والتجربة النفسية » لادورد كلاپار لهارولد هوڤدي و« علم النفس الطفل والتجربة النفسية »لادورد كلاپارد و« الحقيقة والاسطورة الروسية » لارثر كوزليه و« كفاحي » لادولف هتلر ..

يحيى كمال
الشاعر الفنان
١٨٨٤ - ١٩٥٨

علم خفاق على قمة الادب التركي ، تكتحل بمرآه الاجيال المتطاولة ..

ينحدر يحيى كمال ، واسمه الحقيقي « محمد اكاه » من أرومة عريقة ، فأبوه نشلي ابراهيم ناجي — وكان رئيسا لبلدية « اسكوب » — يمت الى شاهسوار[1] باشا ، وهو من «سنجاق بك» على عهد السلطان مصطفى باشا الثالث ١٧١٧ — ١٧٧٤ .

ولد الشاعر سنة ١٨٨٤ بأسكوب ، تحت ظلال وارفة من المجد والنعمة ، تسمو بطفولته نشوة الحياة ، وخصوبة البيئة ، وتتقيض لها بواعث النماء والتطلع .. فكان الغرام بالشعر وترديده ، والاحساس بطغيانه على عواطفه المستعرة ، عوامل ساعدت على تلقيح هذه الطفولة الوادعة .. وبعد تخطيه عتبة الابتدائية ، تنقل في عدد من المدارس المتوسطة ، والثانوية بأسكوب وسلانيك واستانبول ..

ثم كان استبداد السلطان عبد الحميد الثاني ، قد بلغ ذروة لا تطاق ! طفح الكيل ، وعمت الفوضى والشعوذة ، وساد البغي والفساد ، جارفا امام سيله الهادر كل القيم والمفاهيم والمقاييس .

وخوفا من امتداد يد البطش اليه ، هرب مع زملاء له ، خلال سنتي ١٨٩٥ — ١٩٠٣ الى فرنسا ، منقادا بروح الشبيبة التركية ، العاملة بصفاء النيات ، وقوة الثبات ، على تحرير الوطن المغلول ، من براثن السلطنة المحتضرة ، ومن ورائها الاستعمار البغيض .

بباريس التحق الشاعر بمدرسة « العلوم السياسية » ومن حسن حظه أن تعرف الى المؤرخ المعروف ألبرت صورال ١٨٤٢ ـ ١٩٠٦ هذا الذي اوعز اليه ان يقوم بدراسة « المدنية والتاريخ » التركيين، لاستخلاص النتائج الايجابية منهما ، ومدى قدرة الباحثين على استيعابها، والافادة منها ، توطئة لتحديد بعض سمات الحضارة الانسانية ، التي هي امتداد لحضارات سابقة .. متداعية .

وكنتيجة حتمية لهاتيك التدقيقات المثمرة ادرك يحيى كمال : ان الادب الجديد الذي يسود اوربا ، ولا سيما فرنسا ، يناهض الذوق التركي .. ومردّه الى أنه أدب غربي .. وغريب عنه .. فراح بعد ذلك ينحي باللائمة على مقلدي الأدب الغربي .. ثم طالب بوجوب استمداد محتوى الشعر والفكر من التراث التركي الزخّار ، وكيانه القائم عبر العصور المتواردة .. كانت دعوة صريحة .. جريئة ما عرفت الاعتدال ..

واثر اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ، عاد الى ربوع الوطن ، وكلّه توثب واندفاع وآمال .. حيث وجد الفرصة مواتية ، لاظهار ما يجول بوعيه ، فساهم كخطوة أولى في تثبيت دعائم النهضة التحررية المرتكزة على المبادىء الانسانية الرفيعة ، ثم انضمّ الى الحركة القومية التي نادى بها الشاعر المفكر ضياء كوك آلب ..

واذا ما شبت نار الحرب الكونية الاولى ، كان يحيى كمال ينثر بذوره في كل تربة خصبة ، مستهلاً نشر مقطعاته الشعرية العامرة بالوطنية والقوة والنضج في مجلة « يني مجموعة »[1] .. ثم اختير لكلية الآداب لكي يحاضر في « تاريخ المدنية » و « تاريخ الأدبين : التركي والغربي » معللاً طوراً ، ومحللاً آخر ، ابتغاء تمهيد الطريق قدّام الطلبة لاستجلاء الخصائص الأصيلة التي يستقلّ بها كل من هذين الأدبين ، اضافة الى إبراز العناصر الاساسية المكوّنة لهما ،

---

(١) أصدرها ضياء كوك آلب .

والظروف الحياتية والمسببات الحضارية العاملة على تغذيتها ..

على أن حرب الاستقلال التي أرست قواعد الحياة الديمقراطية بتركية أضرمت في نفس الشاعر جذوة الوطنية ، فجعل يذود عن الوطن بما كان في مكنته ذياداً مستميتا ، لا تلكؤ فيه ولا تريث ، معبراً تارة عن الروح الثائرة غير المستكينة ، ومصوّراً آخرى الواقع القاسي الذي يرين بأوزاره واشجانه .. وبالتالي مساهماً في اظهار العلاقات الوثيقة بين الأدب والمجتمع ، فشقت منتوجاته ذات المستوى العالي ، والفحوى الرفيع ، طريقها الى مختلف الصحف والمجلات منها : « دركاه » و « تصوير أفكار » و « طاووس » و « إينجه » و « فوتو مكازين » ..

وبعد الثورة الكمالية انتخب يحيى كمال ، نائباً في المجلس الوطني عن أورفه ، الى أن عين سفيراً لبلاده في وارشوا و مدريد .. كذلك انتخب خلال سنتي ١٩٣٤/١٩٣٦ نائباً عن استانبول و تكيرداغ وبوزكت ، وعندما تأسست جمهورية الپاكستان الاسلامية ، كان اول سفير لتركية فيها .. حتى أحيل على التقاعد سنة ١٩٤٨ ..

فآثر الانزواء تتلقفه الوحشة المريرة في احد الفنادق الانيقة المطلّة على بحر مرمرة بأستانبول[1] .. الى أن اغمض الموت عينيه الضاحكتين في خريف سنة ١٩٥٨ ، إغماضة مطلقة ، بها إحتضن العالم الجديد ... الآخر .

★ ★ ★

إجتمعت في يحيى كمال مزايا شعرية مستقلة ، وعناصر فنية واضحة .. ولهذا كله كان شعره عموماً من الطراز العالي الرائع الذي

---

(١) وفي هذا الفندق قابلتُ الشاعر اكثر من مرة خلال سنتي ١٩٥٤—١٩٥٧ ، واجريت معه تحقيقا صحفيا ـ وقد اثار ضجة طريفة ، نشر في جريدة «الشعب» البغدادية . العدد ٣١٢٣ في ٢٩ كانون الثاني ١٩٥٥ .

تشلت فيه الخصوبة الذهنية ، والحيوية العاطفية ، والسلاسة اللفظية ، والموسيقى العذبة . تأنس بها الأرواح والنفوس إيناساً شاملاً يضمن شيئا غير قليل من الاستمتاع المعنوي ، والانتعاش الفكري ..

ثمة صعوبة واقعية في القاء نظرة موضوعية بحتة على شعر الرجل، لأن شعره هذا ــ وهو حصيلة مراحل الحياة الطويلة المتطورة ــ قسمان كبيران ، وبالضرورة متداخلان ..

أولهما كلاسيكي يحوي الفاظاً عربية وفارسية ، إضافة الى أن التركيب الشعري هو الآخر عربي وفارسي ، ولعل أبين مظاهر هذا النمط : الصياغة القوية الدالة على حذق واطلاع .. وكانت الغزليات والرباعيات والخماسيات والأناشيد من الموضوعات المطروقة في هذا القسم ..

وأما جنوح الشاعر الى المذهب الكلاسيكي ، والرغبة الملحة في التعلّق بمزاياه العامة ، واتخاذه شعر « الديوان » نموذجاً حياً له ، لغرض بعث أدب تركي كلاسيكي ، فناجم عن عمق تأثره بالمدرسة الأدبية التي حمل لواءها الشاعر الفرنسي جون صورال ١٨٥٦/١٩٠٦. وليس في هذا كله ما يدعونا الى الاعتقاد : بأن يحيى كمال من الشخصيات الأدبية العاملة على إدامة شعر « الديوان » لارتباطه بطريقة العروض التقليدية ، من حيث الشكل دون المحتوى ..

وغير كلاسيكي ، هو القسم الثاني .. وقد اطلق عليه « التركية الخالصة » ، حيث نظم على طريقة العروض القاضية بالتزام القافية والوزن . ولكن النقاد يرجّحون شعره الخاص بهذا القسم ، لملاءمته طبيعة الكلمات التركية في القرض ، ثم ان الشاعر بالذات أبدى القدرة الكافية في الافصاح عمّا به من غير عسر ولا تعثر .. وكان لطريقة « التهجي » قسط لا بأس به في نظمه ، بيد أنه وان نسج على هذا المنوال ، فانه إنما نظم أشعاراً جديدة كل الجدة في معانيها ومراميها ، اذ يهون فصلها من اشعاره القديمة بسهولة بعيدةٍ ..

ومن اجل هذا كله ، فانّ اشعاره منظومة عادة بالأسلوب القديم، غير أنها ترتدي ثوب البساطة والحداثة ، حتى لكأنها أثر من آثار معمار ماهر ، أو مقطعات شرقية وفقت — من حيث الانسجام الموسيقى — بينها وبين الطابع الغربي ..

ذوت عبر الايام شاحبة .. صامتة ..
قالوا : إن حالة عرت الفتاة ..
تنبعث من اعماقها رعشة يخنقها النحيب ...
ويشكو فؤادها إنكساراً عميقاً ..
وهجعت الوردة . وكأنها تحسّ بظمأ ..
هجعت ، فقد دامت الحال شهوراً ..
ظللت محياها كآبة المساء ..؟!
حين لاحظها العوّاد في فراشها ..
واذا جعلوها تسلو بأفانين الحديث ..
سكتت ترمق بنظرات ثاقبات ..
وكان في البيت كالرياح ، سرٌ ..
فاستشعر الجميع شيئاً رهيبا ..
ذات صبيحةٍ نفثت بقايا أقوالها ..
فاغمضت عن الدنيا عينيها الكستنائيتين ..
تعالى من حنايا البيت صراخ مؤثر ..
وأنّتْ الغرف : ليلى .. !؟ ليلى .. ؟!
فاقبلت فتيات القرية ، يشبكن الأيدي ..
جاثياتٍ .. نائحاتٍ .. نائحاتٍ ..
واياماً زرعت الموتة المشئومة ،
عند الكثيرات عُقداً خفيّة ..
فتعاورتهن طويلاً ، أوهام وخيالات ..

حتى زعمن : أن ليلى اصابتها « العيونُ » ..

★ ★ ★

شاعرنا فنان له نزعته الخاصة التي لم يحد عنها قطعاً ..

فقد أدرك طبيعة الحياة ، وكنه الوجود ، وصاغهما عن طريق تأملاته وأحاسيسه واخيلته شعراً صادقاً ، يتوهج أناقةً وأصالة ، ويفيض رقةً واشراقاً :

لا تنشد في الدنيا سعداً ولا جاهاً ..

ولا تنشد الفردوس يوم البعث ..

بل انشد مع الأحبة طرباً ، ومع الحبيبة صحبةً ..

في جنان الهوى : حيث البلبل والزهر ..

يقرر بعض المفكرين : أن ثمة من ينقل الاحداث كما هي بلا نقوش ولمسات ، وهناك من يصوّرها بالقياس الى أسبابها ونتائجها ، مبّيناً ازاءها مشاعره الذاتية من انغلاقٍ وانفتاح ، .. حب أو كره ، ومنهم من يعد هاته الأحداث ملكاً خاصا به .. ومن جديد يشرع بخلقها كما لو كان شيئاً وليدا صنعته يد فنان خلاّق .. واذا كله مترع بمقوّمات الفن الأصيل ، وعناصر الوجود الحيّ ..

والشعراء بسبب من حوافز نفسية عميقة ، يواجهون هذه المراحل الثلاث ، ويمرون بها .. وانما العبرة في درجة التفهم والتشبّع والتمثّل .. إلا أن المرحلة الثالثة هي التي يستأثر بها يحيى كمال ، لما أوتي من موهبة فذة .. إن بعث الاحداث وايجادها لهو الاعجاز الفني :

لئن اقبل وقت الاقلاع ،

فلتقلع من هذا الميناء باخرة نحو المجهول ..

وتشق طريقها بصموت ، كما لو خلي متنها ..

لا يرتفع عند إقلاعها منديل أو يد ..

وينظر بعيون ندية الى الافق الاسود اياما ،

اولئك المكتئبون .. الباقون على الساحل ..

أيتها الافئدة المسكينة ، ليست هذه الباخرة هي الاخيرة !؟
ولا الرزء خاتمة الارزاء في حياتنا القاهرة ..
عبث انتظار الاحبة في هذه الدنيا ..
لا يدركون أن الراحلين لا يؤوبون ..
إن معظمهم بات في مثواه مستريحا ..

ويقول في قصيدة اخرى :

حينما انطوت ايام طفولتي في مدن « بلقان » ،
كانت الحسرات تحتويني ، كالنار ، كل لحظة ..
وفي فؤادي ملال ، كالذى احال « بايرن » منكودا ..
وفي ذلك العمر ، تلقفتني الجبال ، وبخيالي لهيب ..

ثم ان رسالته الادبية انسانية ، لانها تنطوي على وفرة من الحقائق الازلية الابدية التي لا يسع العارف لاهميتها وقيمتها ، والمفكر في خطورتها وتأثيرها ، أن يعرض عنها ، غير أن بعضهم يتجاهل هذه الحقيقة الراهنة :

سينتهي العمر الفاني .. فيحل خريف مديد ..
تتناثر الاوراق ، وتذوي الازهار ، وتهجر الاطيار ..
والفصول على امتدادها ، ينخسها وداع ..
وبفعل من هذا الخيال ، تهدر الامواج ، وتتنهد الجبال ..
حين يبعث ما بقى ، إثر الصيف ..
تكتئب الايام ، وتؤذن الليالي بالآخرة ..
فأشجان الخريف تغمر حتى عظامنا ..
ويجد الراحل طريقه ظاهرا يجلله السرو ..
وتخرب آفاق الدنيا ، كلما تطالعها العيون ..
فيتسكع الانسان في دروبها ، عبئا على الروح ..
مثلما يهوي الورق على ماء متساقط ، متوار ..
هكذا الروح ، ترحل ، حيث هجعة ليس بعدها استفاقة ..

إذ يغيبه التراب الأم ، لادراكه الموت ..

ومن هنا انبرى له الخصوم لا يعترفون به كشاعر ، في حين نجد نقادا آخرين يؤاخذونه بشدة على عدم مجاراته لمقتضيات المجتمع ومشاكله ، وعلى تحاشيه عمدا معالجة الشئون السياسية والاقتصادية التي هي من صميم الحياة البشرية ..

غير أنه لم يكترث لهذه الاعتبارات ، ولم يستجب لها ، لأنه لايتفق مع اولئك المتذرعين بالمجتمع وقضاياه ، لكونهم يفرضون في الادب والفن ، آلة مطواعة لاتجاه ضيق معين .. إن هذا مناهض لفلسفته التي يدين بها ، ومخالف لحرية الفنان التي ينبغي أن تضمن وتصان .. هذه الحرية التي هي اسمى من أن تقيد بأي شكل من الاشكال .. وإلا كان ذلك كله هدرا صريحا لكرامة الانسان ، وإمتهانا صارخا لسيادة الفن ، وخرقا سافرا للقيم الفكرية ، على أن الشاعر نفسه يفضي برغم ذلك : بأن عجز الانسان عن تحقيق مايصبو اليه من رسالة ، قد يأتي من صفات قاصرة تصهر روحه صهرا ..

ومع ذلك كله ، فانه عالج شتى الاغراض الحساسة ذات العلاقة الوثيقة بالحياة ، مستمدا مادته الادبية من ينابيع غنية : الاسلام ، والوطن ، والوجدان ، والحب ، والطبيعة ، والتصوف ..

ها هو ذا يقول في مقطوعته المؤثرة « امسية الزهاد » :

الوقت جد متأخر .. ونحن في نهاية امسية لن تعود ..
يا عمري ، هذا فصلك الاخير ، كيفما تمر مر ..؟!
حتى ولو خيل المجيء الى الدنيا ، مرة اخرى ..
فلا نخدع انفسنا بهذه السلوى ..
تنبسط اجنحتها العراض في الفضاء قاتمة ..
ووراءها شمس ، لن تبزغ من الباب الكبير ..
وما دام الغروب ، سيطوي الوجود بردائه ،
فاقض يا قلب ــ كما شئت ــ أواخر أيامك .. ؟!

منتشيا بخمرة الاشواق ..
او منغمسا في لجة العشق ..
لتتفتح على نحورنا الزهور ، او شقائق النعمان ..
وله قصيدة غزلية مغناة ، راحت الشفاه ترددها .. وكأنها لوحة صارخة بالالوان المحببة ، وبالظلال اللطيفة :
تمهل ، أيها الجداف ، لئلا يستفيق القمر ..
اخشى ان يتحسس الماء الذي يداعبه الخيال ..
استسلم الكون ، في حضن الربيع ، لطيب الكرى ..
ليدم رقوده حتى قيام الساعة ..
لتخرس القيثارة في غمرة هذي الموسيقى الالهية ..
ولا يستغرق المضراب مرة اخرى في ليال طربة ..
ايتها الزهرة ، ليصمت البلبل ، حتى تعم السكينة ..
لربما الاحباء المتشون اعرضوا عن روعة الرياض ..
يا « كمال » عبث هذا التهافت منك ، على بلوغ نهاية العمر ..
ليكن هكذا .. لكيلا يستيقظ القلب المتعب من رقوده ..
ثم تناول الاحداث التاريخية التى تعكس واقع الامپراطورية العثمانية وانتصاراتها ومدنيتها ، معبرا عما تراءى له خلالها ، من العالم المعنوي ، ذلك الذى لا يقف عند حد ، ولا ننسى ما لاستانبول وروملي والجزر والبحر من شأن كبير في شعره ..
ويجمل بالقول : إن استانبول ، ملكت على الشاعر لبه ، واحاسيسه مستأثرة باهتمامه الموصول ، وبغرامه العارم .. والذى جعله يهيم بها هذا الهيام البعيد ، ويتغنى بمآثرها وروائعها ، هو فيضان جمال الطبيعة الساحر .. الناطق فيها .. ثم احتواؤها على الاثار التاريخية الخالدة ، والمتاحف الجليلة ، التي تعيد صور الامجاد ، وذكريات الاجداد ..
من قمة تل ، اطللت عليك ، ايتها العزيزة : استانبول ..
فلم يطالعني ما يضارعك ، مهما طفت ، واحببت من اماكن ..

كوني ، كما أنت ، ما طال عمري ، وحتى يتهشم مني الفؤاد ..
إن مجرد حب حنية من حناياك ، يساوي الحياة كلها ..

إن حب الشاعر لاستانبول لا يوصف .. هكـذا يزعم .. لانه يرى : أن المحظوظين عاشوا بها مدة أطول .. ويتجاوز هذا مدعيا : أن الذين ولدوا في أرضها ، وماتوا تحـت سمائها ، ودفنوا في ترابهـا ، ارتحلوا وكأنهم يعيشون في حلم طويل .. منعش ..

كم من مدن جميلة ، تشاهد في هذي الدنيا ،
ولكنك أنت الرائعة ، الجذابة بينهن ..
إستغرق عميقا ، في حلم جميل .. طويل ،
من عاش فيك مديدا ، ومات ، وضمه ترابك ..؟

وكان هذا الاخير يكشف عن حنينه الى الماضي .. الماضي القريب أو البعيد .. وحينما يتلو المرء رائعة له ، يحتويه الاسى على ذلك الماضى المتألق مجدا ، والمتضوع رحيقا .. وهو يقف اجلالا لعظمته وروعته ، لا لشيء سوى انه كان عاملا أساسيا في تشييد حضارة اليوم ..

على أن حنينه الى الماضي ، المتميز بخصائص الاصالة والجلال ، مبعثه ما يتناهى اليه من اصداء الحوادث والمآثر ، التي تنعكس بهـا الروح الانسانية ، وكأنها موسيقى أبدية .. شجية :

كامل ذلك العائش في الذكريات والخواطر ..
لا ينتظر من الدنيا عطاء ..
مفعمتان عيناه كل آن بالحب والربيع ..
فقد نال مراده عبر حياته من الزمان ..

★ ★ ★

إعجاب يحيى كمال بالفيلسوف الشاعر عمر الخيام ٤٤٥هـ ــ ٥١٧ دعاه لأن يترجم بعضا من رباعياته الى اللغة التركية ، على نفس الـوزن والقافية ، ترجمة رائعة موفقة ، تنم على تذوق فني اصيل ، وتمكن من إيفاء حق ما اضطلع به من مهمة عسيرة ..

ومن هاتيك الرباعيات ، على سبيل المثال :

آن قصركه بـر چرخ همـي زد پهلـو ،
بر دركـه او شـهان نها دنـدي رو ،
ديديـم كه بـر كنكره إش فا ختـة ،
بنشسته همي كفـت كه كوكو كوكو .

★ ★ ★

آثان كه در آمـدتد ودر جوش شدند ،
آشـفته ناز وطـرب ونوش شـدند ،
خوردنـده پيـاله ومدهوش شـدنـد ،
در خواب عدم جمله هم آغوش شدند .

وقد ترجمهما يحيى كمال على هذا النحو البديع :

بر قصر ايدي چكمش كوكه برجـو بارو ،
شهلر يره يوز سورديكي بر قصر ايدي بو ،
بـر قومرو جهان توماسو اوستنده دروب ،
هـر آن اوتيـور قـوقو قـوقو .

★ ★ ★

او نلركه كلوب بو دهره پر جوش أولارق ،
اذواقه صاريلديلر قـدح نوش اولارق ،
ايچدكلري بادهلرله مدهـوش اولارق ،
صوك اويقويه دالديلر هم آغوش اولارق .

احمد هاشم
شاعر الطبيعة والرمزية
١٨٨٥ - ١٩٣٣

للامة التركية ـ ككل أمم العالم ـ تاريخها المجيد الذي إستطال قرونا ، وحضارتها الحافلة التي ساهمت في إزدهار الحياة وخير الانسان ، وأدبها الرفيع الذي غذى النفوس ، فوعته القلوب والعقول على حد سواء ..

ولقد انصهر الادب التركي ـ كأي ادب حي يريد الخلود ـ في بوتقة من المحن العصيبة ، وهو يمر بتجارب الحياة المتلاحقة ، ويخوض مراحل شتى ، منحته سمات ظاهرة المعالم ، ونفخت فيه روحاً جعلته يستوى قائما ، يثبت كيانه ، متطلعا لادراك قافلة الغرب ، لعله أن يكون كذلك ، أو أن يقاربه ولو بعض الشيء .. ونتيجة لهذا كله اصبحت هناك عدة ادوار للادب التركي المتوغل في عصوره المختلفة .. فهناك ادب الديوان ويمثله الشاعر باقي[١] وأدب التنظيمات ومن اقطابه الشاعر شناسي[٢] ، والادب الجديد ورائده المفكر الحر توفيق فكرت[٣] وأدب لئة سنة ، **وقد انضوى تحت لوائه الكثيرون من شعراء الترك** وادبائه كمحمد عاكف[٤] ورضا توفيق ويحيى كمال[٥] وأدب الجمهورية الذي يتمثل في تتاج الشعراء : جاهد صدقي[٦] وفاضل حسني ، وأورخان ولي وغيرهم ..

أما شاعرنا احمد هاشم ، فيحتل ما هو جدير به من المكانة في

(١) راجع ص٥ (٢) راجع ص١٦ (٣) راجع ص٣٩ (٤) راجع ص ٤٩
(٥) راجع ص٦٧ (٦) راجع ص٨٦

الدور الرابع من أدوار الادب التركي ٠٠ ولد ببغداد سنة ١٨٨٥ ٠٠ فأبوه عارف حكمت الالوسى ، وامه من عائلة آل الكاهية المعروفة ٠٠ قضى طفولته وأيام صباه متنقلا بين أماكن عديدة من اقضية العراق بحكم وظيفة أبيه الذي كان قائممقاما ٠٠ وعزيت الى ذلـك كله بواعث تأخر تحصيله الى حد ما ، وعندما ذهب الى استانبول لاول مرة سنة ١٨٩٦ لم يكن يتقن اللغة العربية ، ولكي يحذقها دخل مدرسة « نموني ترقي » لسنة واحدة ، وبعدها دخل ثانوية « غلطه سراي » وتخرج فيها سنة ١٩٠٧ ، وعين بامتحان مأمورا في انحصار التبغ ، وبعد اعلان المشروطية عين مدرساً في ثانوية أزمير التي قضى بها سنتين ، ثم نقل كمترجم الى وزارة المالية ٠٠

ولما اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى ، اصبح ضابط احتياط في الجيش التركي ٠٠ وما ان وضعت الحرب اوزارها حتى التحق بدائرة الديون العمومية ، فعمل مفتشا ، واشتغل بالمصرف العثماني مدة من الزمن ، الى أن تم تعيينه في أكاديمية الفنون الجميلة لتدريس المفاهيم النظرية للقيم الجمالية ، في الوقت الذى غدا عضـوا في مجلس ادارة السكك الحديد التابع للاناضول ، وتوفي سنة ١٩٣٣ وهو مريـض فى كبده ٠٠

★ ★ ★

عرف أحمد هاشم في الادب التركي بهيامه بالطبيعة وجنوحه الى الرمزية ٠٠ وقد كان كذلك ٠٠ فهو إنما شاعر الطبيعة والرمزية ٠٠ وفى شعره حنين ، واحساس بهذا الحنين الى الوطن ٠٠ وكان مفطورا على حب الشعر ، ولوعا به ٠٠ وليس من السهل على الانسان الحساس أن يميل عن شيء جميل جبل على حبه ، والتغنى به ٠٠ فنظم القريض وهو لما يزل طالبا بالثانوية ٠ وكان زملاؤه يقدرونه ، ويحفظون ما ينظمه من رفيق الشعر ٠٠ اذ قرأ أدب الديوان فاستذوقه ، ولكن تأثره به لم يظهر على شعره ٠٠ وانتمى الى جماعة « فجري آتي » وقرأ الادب الجديد ،

فتأثر بالفاظه الضخمة ، وتراكيبه المرصعة التي شاعت في نظمه ولم يتحرر من قيودها الا بعد الحرب :

لم هذا الاصرار أيها البلل .. في فجر الخريف الكئيب ..
على زهرة ..
أتعلم أنها ماتت ..
بعد أن عاشت في حدائق القلوب ..
ها هي ذه وريقاتها تتطاير .. !
في فضاء تجلله اشعة الشمس المشرقة ..؟!

والاهم من هذا كله أنه قرأ الادب الفرنسى قراءة المتبصر ... المتمعن ، فهضمه واحاط به الى أن قاده الى رمزيته ، فمال اليها ميلا شديدا ، مستغرقا في بحرها .. منجرفا بتيارها ، حتى بات من دعاتها ومشايعيها .. وبرغم تأثره بهذه الرمزية واقتفائه اثرها ، فانه انما حرص في نظمه على حسن التعبير والذوق والمضمون الذي يلائم الافهام حرصا زائدا .. وكان الوحيد الذي مثل هذا الضرب من الشعر بتركية يومذاك ... كذلك ادخل لاول مرة طريقة الشعر الحر في الادب التركي .. فجاء شعره حافلا بالتعابير الخاصة التي هي بنت الرمز والايماء ، وعالج وهو بصدد الدفاع عنها ، مسائل تتعلق بالمعنى والصراحة ، ظانا أن الصراحة ، وان كانت شيئا يخص النثر انما تتولد في الشعر من كمون الجمال واختفائه .. يقول :

فوق موجات البحار الطافحة المتدافعة ،
انبلجت السماء الداكنة .. الحمراء عن طلعة الفجر الوليد ..
ويهب النسيم البليل ، وهو يغمر الروح مهدهدا ..
كأن الدثار الحريري ،
للحبيبة الرائعة اللعوب ،
يعبث بالخيال ..

ثم يقول في مقطوعة اخرى :

مع مشهد الغيوم العائمة عبر الفضاء ،
وروعة الغروب المهيب ..
تنساب أمواه الخضم ،
فوق ذرات الرمال .. الدقيقة .. الذهبية ؟!
وتحت ظلال السماء المطرزة .. المتعالية ،
عذراء في ميعة الحياة :
تســعل ...
وعلى مقربة منها ،
رجل يئن ..
وقد مزج روحه بلجة السحاب الصفراء التائهة ..
يئن خافتا ..

★ ★ ★

ثم تتدحرج الظلال على حياة راكدة ،
وفي السماء نجمة زرقاء ، مختلج نورها ..
ترمق برنوات عميقة .. كبيرة .. مترددة ..

واطلق احمد هاشم لعنصر الخيال ، العنان ليسرح في عالم الطبيعة انني اثرت هي الاخرى في شعره أيما تأثير ، وكان يتلمس الوان الحياة من نظراته النافذة في بحيرة الخيال ، وهو العائش في دنيا تبعده عن طبيعة الحياة الصاخبة .. دنيا معطرة بالاحلام والرؤى ، يهيم بها على سجيته ، منطلقا تلك الانطلاقة الحلوة التى لا تصدها حدود .

وما القرنفل الا شظية تنطلق من ثغر الحبيب ..
هذا ما أحست به روحي من حزنها ..

★ ★ ★

تتناثر مصعوقات في كل مكان ..
من أريجها الفواح .. تلك الفراشات ..
وحام فؤادي حولها ...

لذا إنعكست خطوط الطبيعة واشكالها على شعره إنعكاساً تاماً قدر به أن يبرز أفكاره المتزاحمة ، وصوره الرائعة ، ويصبها في اطار شعري يتشح بالرمزية .. فتراه يتغنى بالخريف والشتاء ، ويتجاوب مع الربيع والصيف ، ويعشق الروض والقمر ، ويناجي الطير والزهر ؛ ويهفو للسكون والغروب ، وينشد الماء والخضراء والوجه الحسن ..

أقبل الشتاء .. يا لها من نظرة للشمس في الغروب ..
ها هي ذه الطيور سارحات في الآفاق ..
يتعالى أنينها ، وحنينها ..
لأوكار عبثت بها قسوة الطبيعة ..

★ ★ ★

أقفرت السهوب وهجرت ..
وعليها بحلول الشتاء خيم السكون ..
وعلى امتداد الارض الصفراء ..
لا يتراءى للناظر : غاد ولا رائح ..

★ ★ ★

لم تعد هناك سوى قوافل من اوراق متساقطة ..
تذروها الرياح ..
وهي تزحف نحو آفاق سحيقة ..
يتراقص في كيانها شبح الخيبة .. وطيف الانتكاسة ..
ومن جديد ، ها هو ذا الشتاء ..
وجوه الآمال ، علتها كآبة كالحة ..

وانظر اليه في هذه المقطوعة الجميلة :

حين يسكب « أيلول » على الافق شعاعا قرمزيا ،
تعبث أيها النسيم النائح بزفيف خفيض ،
بخصلات شعر مترام .. هفهاف ..

★ ★ ★

ويتألق الآن ، النجم المخمور في السماء ،
رويدا .. رويدا ..
ويغيب .. ثم ينبثق ..

★ ★ ★

إيه أيها النسيم العليل .. النسيم الحزين ..
صوتك الآسر .. الواطيء .. كئيب ..
حيث تنتحب لهموم ذاتك ..
حسبك همومك [1] ....

ومن أجل هذا كله فقد طغى على شعره عنصر الخيال الوثاب واتسم كنتيجة طبيعية له ، بطابع الغموض ، وكثر فيه الالتواء ، مما يصعب فهم معانيه بسهولة ، الا اذا امعنا في التأمل ، وآثرنا التغلغل في الاعماق .. وهناك مثلا نقاد يلاحظون على أحمد هاشم ان رمزيته المستغرقة ، متفجرة من بقايا الاحاسيس المبهمة في العقل الباطن ، وناجمة عن الانقياد لخيالات وتصورات واحلام ذات ظلال واجنحة .. اسمعه يقول :

فارسية ، هذه الفردوس ..
أحواضها امتلأت بكؤوس من لهيب ..
نظراتك هذا المساء ،
على غير ما ألفتها ..
انها مثقلة بالهموم ..
خضراء سماؤها ، صفراء أرضها .. حمراء غصونها ..

وكذلك اسمعه يقول :

ولى النهار ..
وغارت نضرة الشجر ..

---

[1] وللشاعر مقطوعة مماثلة لهذه ، سبق أن ترجمتها . انظر جريدة « البشير » الكركوكية العدد الثالث في ٧ تشرين الاول ١٩٥٨ .

تحول الورق نارا ،
وبات الطير ياقوتا ..
ألق يغمر الاوراق ..
ويحيل ماء الحوض الى أرجوان ..

إتخذ أحمد هاشم بعض أشعاره أساسا لتدعيم قواعد الاخلاق ، مستهدفا من وراء ذلك غايات حسنة ، فتطرق الى قضايا الفكر والحرية والحق ، ليدافع عنها دفاعا مستميتا .. ووطن نفسه على المضي في هذا السبيل ، معتقدا أن الادب الاجتماعي لا يعرف ماله من التأثير الا اذا عكس صور المجتمع وما ينتابه من الاحزان ويطوف عليه من الشؤون .

كان الشاعر ينشر قصائده ومقالاته في صحف متعددة منها : « المجموعة الادبية » و « الكتاب المصور » و « ثروة الفنون » و « المساء » و « الاقدام » .. ويجمل بالذكر أن قصيدته « شعري قمر » تعد من أحسن ما نظمه في عهد الشباب ، فانه وصف بها بغداد، مصورا مظاهرها ومعالمها التي أثرت في نفسه ، وانطبعت في خاطره منذ الصبا ، معبرا فيها كفنان أصيل عن ذاتيته ، ساكبا عصارة عواطفه الوجدانية .. الصادقة ، ونشر في حياته كتبا تلاقي بتركية وخارجها ما تستحقه من عناية الكتاب والنقاد ، وهي « كول ساعتلري » و « پيالة » و « غوره باهاني لقلقان » و « بزه كورة » .. ونشر كتابا في أدب الرحلات سماه « سياحة فرانكفورت » ويحتوي على انطباعاته ومشاهداته التي كان يحبّرها اثناء قيامه برحلة الى فرانكفورت انتجاعا للراحة وطلبا للاستشفاء .. هذا الكتاب الذي يقال عنه : انه اقوى وأبدع ما كتبه احمد هاشم في النثر الفني المنوع .. ومن هنا تطالعنا اراء النقاد في أدبه .. تلك الاراء التي لا تخلو من القسوة والجور ، فقد ذهب بعضهم الى ان شاعرية احمد هاشم لا يمكن أن تتألق الا في نثره « العفوي » الاصيل .. ثم لا يتردد هذا البعض

في تفضيل نثره على شعره ، وفي القول : ان أدبه اذا عاش فانما يعيش بالنثر دون الشعر .. ولا ادري ما مدى صحة هذا الرأي لدى النقاد الاخرين الـذين لهم موازينهم واصولهم التـي يتمسـكون بها ولا يحيدون عنها قيد أنملة ..

واخيرا هذه مناجاة انبعثت من قرارة وجدانه النابض بالشعور العميق والايمان المطلق .. اذ يقول :

ليس ماء ما ينساب من سماء الموسم ؟
ما تحس به ، حفيف الاوراق ، وتمايل الاغصان ..
انما الماء ما ينفثه تلألؤ النجوم ،
النجوم هذى التي تبدو بين الفينة والفينة ..

جاهد صدقي

المتشائم الذي عشق الظلام وتغنى بالموت

١٩١٠ - ١٩٥٦

بعد أن وضعت الحرب الكونية الأولى أوزارها ، وانزاح عن صدر العالم السادر.. الخائر كابوس الانحلال السياسي والاقتصادي، ووطأة التدهور الاجتماعي والثقافي ، تمخضت الثورة الكمالية بتركية، عن انبثاق العهد الجمهوري ، المشيد على انقاض الأمبراطورية العثمانية التي طواها النسيان ..

وكان من الطبيعي أن يكون لهذه الثورة التي نسفت قلاع الطغيان والرجعية والاستعمار ، وركزت دعائم الحرية والعدل والمساواة ، تأثير عميق الغور ، في كيان الحياة الأدبية ، المشبعة بكوثر من تقاليد بالية ، وافكار تقليدية .. فاستبدلت الحروف العربية بالحروف اللاتينية لمسايرة الحضارة الانسانية ، والانتقال من التأثير الشرقي ، استبدالا خلق معه ضجة مستدامة تردد صداها في داخل البلاد وخارجها ، وكان لهذا الاستبدال مشايعوه ومناهضوه .. وتوارت القيم الصفراء المستأثرة بالواقع الفكري الراهن ، وتبدلت شتى الاتجاهات والنظرات التي أخذ بها ، وسار على هداها أرباب العلم والمعرفة .. انما حل محلها ماهو جديد ومستحدث ، يصعب أن يرتبط بالمفاهيم العتيقة الا بالنزر اليسير ، حتى انقطعت الصلة بكل سبب من أسباب الماضي ..

بزغ الأدب الجمهوري ، يعلن انقلابا خطيرا في النهج والغاية.. في الطريقة والاداء .. في الشكل والمضمون ...

فقد باتت لغة الكلام بالذات هي اللغة المستعملة في جميع

أشكال الكتابة وضروب المعاملات •• ان هذه الطريقة سهلة •• ميسورة ، لها خصائصها المميزة ، تكسب اللغة التركية الحديثة مرونة ، وقوة ، وتسبغ طابع البساطة والاصالة — وهما من عناصر الفن — على النتاج الأدبي ، وتبعده عن شوائب التصنع والتعمية ••

وتلألأت تباشير نهضة شعرية •• جديدة ، تحتل عبر السنين مقامها الذي تهيأ له ، متطورة ، متوسعة ، على أيدي شعراء نابهين ، إنبروا في الميدان لأول وهلة • • وحازوا تقدير المدرسة النقدية •• وقد وعوا جوهر الاشياء ، وأحاطوا بطبيعة الفن الذي ينبغي الالتزام به من غير تنكر له ، بحكم تأثرهم العميق بالموجات الأدبية الزاحفة من ديار الغرب • الا أن هذه النهضة خطت بعض الأشواط التمهيدية بغية إستكمال مقومات نضجها ، ومشخصات ازدهارها ، حتى بلغت شأواها وأوجها حين طلعت حركة « الشعر الحر » تكشف عن نفسها ، وتنثر بذورها في كل تربة • • ولعل احمد هاشم أول من اقام اوهاصات هذا المذهب الجديد ، مرسياً قواعد الشعر التركي المعاصر •• أتى من بعده ناظم حكمت ١٩٠١ — ١٩٦٢ كامتداد له ••

واخيرا تقيضت لنهضة الشعر أسباب الاستقلال الذاتي ، له معالمه وملامحه ، فكان ثمة أدب شعبي حي يلتصق عضوياً بالنفوس المستغرقة في المشكلات الفردية ، والاحداث الحياتية ، وأدب اقليمي بحت يستوحي الانواع الأدبية من واقعية الحياة التركية ، وصميم تراثها القومي ، ومفارقات الظروف والحالات الدائرة ، ويستلهم الانسان ومطامحه وآماله وأفكاره ، ويصور المشاعر الوطنية والبطولات الخالدة ، ويعبر عن الخلجات الوجدانية ، والعواطف البشرية •• حيث توافرت هاته العناصر في آثار الشعراء : أورخان ولي ١٩١٤ ، وجيحون عطوف ١٩١٩ وأحمد مهيب ١٩١٩ وبدري رحمي ١٩١١ ومليح جودت ١٩١٥ وبهجت نجا تيكيل ١٩١٦ وفاضل حسني ١٩١٤ واوكتاي رفعت ١٩١٤ وعساف حالت ١٩٠٧ وجاهد

صدقي ١٩١٠ - ١٩٥٦ ومن اليهم ..

وبالرغم من أن هؤلاء الشعراء تشبعوا بروح التجديد ، وآمنوا بالتطور كقاعدة اساسية للانطلاق نحو الآفاق الرحبة .. المشحونة بطاقات الاغراء ، منساقين بفعل التيار العنيف ، مشيحين عن الأصول القديمة ، والخروج على قواعد الوزن والقافية ، فان بعضا منهم شذ عن هذا النهج وتطبيقاته العملية ، ولاسيما ما يخص الحفاظ على العمود الشعري الموروث ، والاحتذاء بالانماط الشعرية المألوفة كـ « الغزل والقصيدة » .. وكان يحيى كمال هو الشاعر الأوحد الذي ظل ممثلا لطريقة « العروض » متشبثا بها ، مدافعا عنها باستماتة ... ولكن صولة الجديد الشديدة إكتسحتها ، وتركتها تتخاذل متوارية عن الأنظار رويدا رويدا ..

★ ★ ★

جاهد صدقي أحد قادة الشعر التركي الحديث ...

رفع راية التجديد بعد اعلان الثورة الجامحة على الأساليب التقليدية في القرض ، والعائقة لتحرره المنشود.. غير أنه كان يتعصب للقافية الى حد كبير .. ويعيرها الاهتمام الخاص ..

بديار بكر ولد جاهد صدقي .. وهناك درس بداية الأمر ، ثم قصد الى استانبول ، ليتنقل في عدد من مدارسها المختلفة ، الى أن استقر به التطواف بثانوية « غلطه سراي » ومن هنا ظهرت في نفسه نزعة الأدب الطاغية ، مستشعرا الغرام بروائعه ، والانجذاب الى فنونه .. فامعن في استيعاب نامق كمال ، وتوفيق فكرت ، واحمد هاشم ومحمد أمين ١٨٦٩ - ١٩٤٤ وأوغل في قراءة الشعر الفرنسي المتحرر ولاسيما شعر بودلير ١٨٢١ - ١٨٦٧ وڤارلانيه ١٨٤٤ - ١٨٩٦ ، وقد تأثر بهما الى أبعد مدى ، متشوفا الى عوالم مترامية .. شاملة ..

هذا كله حضه على أن يراسل شقيقته بدياربكر ، مراسلة أدبية

منصلة ، اضطست على كيفية وروده منابع الثقافة والفنون ، وعكوفه بنهم مقيم على هذه الدنيا المائجة التي كلها جمال وطيبة وانطلاق ، ثم حاجتـه الماسة الى تصوير ما يتشابـك داخل كيانه ، والتعبير عـن احاسيسه وخطراته ، حتى قادته الحماسـة الأدبيـة المستبدة به الى الاسراع في نشر ماجادت به قريحته الغزيرة في الصحف : «جمهوريت» و « كولتور هفته‌سى » و « محيط » و « ثروت فنون » ...

وحين توسمت فيه هيئة تحرير جريدة « حريت » ملكة حريـة بصقل ورعاية ، بعثته على نفقتها الخاصة الى فرنسا ، بغية متابعـة تحصيله العالي ، وايغالا في ابراز مواهبه واستثمارها ..

فانساب عبر الانوار والظـلال ، حائما حول سـحرها وفتنتها كالباحث اليقظ عن شيء مفتقد ، مقبلا بلهف على ينبوع الحيـاة الثر الذي ينقع الغلة ، ويملأ العين .. تجلت مظاهر استغراقه في عالم الادب الجديد .. المشع .. المعطر في ترجمتـه بعض الاقاصيـص الرومانتكية والاشعار الرمزية لبودلير ، وپول ڤارلانيه ، وسوپرفيل ، وپيره عمانوئيل ، واپولسين آبري ورونسار ١٥٢٤ ـ ١٥٦٠ وڤيللون ١٤١٣ ـ ١٥٠٠ وآپولينار ١٨٨٠ ـ ١٩١٨ ومالارمه ١٨٤٢ـ١٨٩٨ وجولز لاڤوركيو ١٨٦٠ ـ ١٨٨٦ والفرد دى‌موسيه ١٨١٠ ـ ١٨٥٧ ورمباود ١٨٥٤ ـ ١٨٩١

ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية ، وتماديها في اشاعة الترويع والقلق في النفوس الآمنة ، واحتـلال الالمان پاريس ، قسر جاهـد وزملاءه على هجر فرنسا ، تورعا عما قد يلحقهم من نكبات توردهم موارد الحتف والوبال ..

عاد والفكر منه مشوش ، والاسى يخرس لسانه ..

وعلى اثره اضطر ان ينتظم في سلك التعليم كمدرس بأحـدى المتوسطات ، الى أن عين مترجما بوزارة « العمل » .

وشاء القدر أن يباغته بما لا يخطر له ببال ..

أصيب بالشلل العام ، دام سنتين ، فكانت طعنة نجلاء مزقت قلبه إربا .. وضربة قاصمة هشمت عقله نثارا .. ولم يجده تداو موصول نفعا .. ولم ينله ارساله الى ڤينا شفاء ..

فاخترمته المنية المحتومة ، في خريف سنة ١٩٥٦ ، وهو يودع السادسة والاربعين الوداع الابدي ..

المنية خاتمة كل امرىء .. فما العمل .. ؟ !
رقدة .. ليست بعدها استفاقة .. ؟
ومن يعرف اين ؟! كيف .. ؟! كم العمر ..؟!

ويقول في مقطوعة « المائدة المتفرقة » .. وحسب القارىء أن يتأمل ما بها من شجو طاغ .. واذعان تام :

مات .. ؟ !
لم تهب النسمات إلى الداخل .. ؟
ولم ينطلق من النافذة شحرور ..
مات .. !!
لم ير أحد الملائكة ..
لا تسل كيف ولى الذاهب دون نبأ ..؟!
يقولون : انه خرج الى رحلة طويلة ..
هل ثمة من شاهد السفينة .. !؟
أين الخضم ..؟!
رحلت .. فاضحت مائدتنا نثاراً ..
ان حالنا تستعيد ذكرى اليوم الوليد .

★★★

كانت حياة جاهد صدقي ، سلسلة موصولة الحلقات من المآسى والخطوب التي تعاونت عليه ، وهي تخضد شوكته ، وتشل ارادته ، فقد استسلم للنكسات النفسية متخاذلا في مغالبتها وازاحتها ، واصطلحت عبر الايام مسببات الاسقام على كيانه الهزيل دون أن

بدعه يفلت من قبضة الموت الزؤام . واحاطت به الظروف العصيبة .. القاسية ، وعاكسته جورا من غير أن تتيح له فرص الوصول الى ما اشتهاه وهتف له من كل جوارحه ، واضناه حب صارم مستحكم ، حتى جعله يحس بهجران روعة الشباب عنه، وهو لما يزل في ذروته الوضاءة المشرقة ..

ثم لحقته خيبة مذمومة في ايقاف تألب صروف الزمن عليه ، عند حده ، ومحاولة التوفيق بين هذا الحد وبين مزاجه ومطامحه ..

انعكس هذا كله على نتاجه الأدبي انعكاسا شاملا .. عميقا ، وصبغه بلون كثيف خاص ، هو السواد بقضه وقضيضه ، والقى عليه ظلال التشاؤم والكآبة والتساؤل ، صانعا من صاحبه شكاكا ، محترسا ، حائرا ، تهمزه الانفعالات والهواجس . .

انها الحيرة والاحساس بوقرها .. الحيرة الملتطمة الخليطة بالاستفهام ، تسوق جاهد الى مجاهل الحياة النائية .. مطلعا ، منبهرا ... ولكن هل ينتشله من هوة حيرته ، سكونه الى البحر .. ولياذه به ..؟! البحر رمز الابدية .. البحر بموجه المصطخب وزبده الطافي :

قل لي الحقيقة .. ايها البحر ..؟
ان لك قصدا ، ولا ريب ؟
من الارتطام بالساحل صيفاً وشتاء ..
ما الذي اخذته ولم ترده ...؛
من هذا التراب الجميل .. المراح ..؟
فداء ذهبنا في سبيله ..
وعبر النيران مضينا ..
ترادفت سنون .. وأدركت عصور ؛
أما ينقص ، ما يطويه صداك من سر .. ؟!
ايها البحر ؛ ما تروم أن تقول ؟!

تخل عن حديث ، يجلله الابهام ..
ارفع عن فمك القيـــد ..
لتسعد حظوظنا . . ليأت النهار ..
لتعم السعادة بين الخلائق ..
حسبنا ما عليه ، حالنا ..

تفكر جاهد بالموت ، وتغنى بالظـلام ، وتحسس بالتشـاؤم ؛ وترنم بالحب ، واستغرق بالاحلام التي تزيد الموت هيبة ؛ والظـلام حلالا ، **والتشاؤم عمقا ، والحب إتقادا** ، **وهو يفتقد** بصيص الرجاء عبر الظلمات الحالكات .. المرخية الستائر .. المطبقـة على الوجود الزمني :

لم تف السماوات الزرق بما وعدت ..؟!
تسود الدنيا كلما تمادى الموت ..
نسيم المساء ينطق بالندم ..
ان الموت يزرع الندم في ذاتي ..

★ ★ ★

ما الحيلة .. لا تشرق الشمس ، كما أهوى ..
الموت كالماء المنساب ، كما أدرك ..
والى أية نافذة أحث الخطى ليلا ؛
لا يتحرر هذا الكيان من سطوة الموت

★ ★ ★

لا خير في ماض ناكر للجميل ..!
وليس المستقبل بساع الى العون ..
منذ طويل ، اغرقت المياه هيكل السفينة ..
أيها الموت ؛ منذ مدة معقودة عليك الآمال !

على أن التعليل النفسى لهذه الظاهرة ، يشف عن مبلغ تعلق جاهد بأذيال الحياة ، وجنوحه الى نشدان شهواتها ، **وغلوه في الايمـان**

بجمالها ، وبالتالي **قعوده ـ رغما عن ارادته ـ عن تحقيق ما يصبو** انبه .. ولا يمكن أن يسلط الضوء الكشاف على هذه الحقيقة الواقعة ، ويجسدها الا قوله : « ان العيش هو شيء تعودنا عليه ..» .. فأي تبرير لهذا كله غير مايقول :

على تطاول الزمن ، كيف يتغير الانسان ..؟!

في أية صورة حدقت ، لم تكن أنا ..

اين تلكم الايام ، ذلك الشوق ، ذاك الاندفاع ؟!

لست أنا ، هذا الرجل الصبوح المحيا ..؟!

كذب كوني غير بائس .. كذب ..

★★★

عبر الخيال يرتعش حائرا حبنا الأول ..

بات علي غريبا حتى تذكره ..

والاحباء الذين استهللت واياهم موكب الحياة ..

افترقت بهم السبل ، واحدا إثر آخر ..

كلما تواردت الايام ، أمعنت وحدتنا حدة ..

★★★

هل لأديم السماء لون آخر ..؟!

كنت متريثا في ادراك صلابة الصخر ..

ان الماء يستغرق المرء ، والجذوة ترمضه ...

عارف من يبلغ هذا البحر ..

ان كل يوم متشح بغم وكآبة ..

وما كانت نظرته السوداء .. المترددة الى الحياة ، وتطيره مما يكتنف ذاتيته ، واصراره على معرفة بعض الحقائق المجردة عن طريقهما ، الا تأكيدا ، واعترافا بهذا التأكيد على المصير المنطقي الحتمي الذي ينتظره الناس ، والذي له دلالته النفسية ، ومغزاه الطبيعي ..

وكان هذا تشاؤما إيجابيا ، بلورته عنده طبيعة التفكير الذاتي، والنفوذ من خلاله الى معضلات الوجود والحيـاة ، وموقف الانسان الحديث منهما ، وكيفية صيرورته الى الفناء .. افضى به ذلك التفكير العميق الى ما شاء أن يسترسل في التعبير بأسلوب طريف .. هادىء ، فى دواوينه الثلاثة : « عمري في صمت » ١٩٣٢ و « العمر الخامس والثلاثون » ١٩٤٦ ، وقد فاز به جائزة حزب الشعب وسما به مقامه الشعري و « اجمل من الحلم » ١٩٥٣ ، حتى محا علامات الاستفهـام والحيرة التي بقيت تطوف علىثغره ، وامارات القلقالروحي ، والتبلبل العقلي التي طفقت تعذبه بلا هوادة :

ايه أيها الموت ، شعاعك أنفذ من الشمس ..!
يا من ، لا ينضب معين سكونك ..
وهذا السحاب المعلق تحتك ..
لك ما انتظره من البشرى ..

★★★

إن الدخان على المرآة ، هو الليل ..
ينطوي هذا الفؤاد البرىء على الحسرات ..
« تسابيح » الصبر ، اوشكت أن تتناثر ..
أي يوم يتمزّق حجاب الموت ..

★★★

لا يعود اليوم ، ولا الوجود ، الى أهله ..
الحجر .. التراب .. الزهر .. الماء .. أو المعدن ..
خرافة ما تزعمه الاساطير ، من خلود الروح ..
فاين الخـلود .. أيها الموت ..؟!

ومن اجل أن يدعم فكرته القائمة ، ويستشف ما استغلق عليـه تفهمه ، يعود ملتفعاً برداء الطمأنينة ، وكأنه بلغ الشاطىء المنشود ... يقول في مقطوعة « الميت » :

تلاشى في ذلك اليوم ..
وقد استطال على إمتداده ..
باتَ قرباناً لأرضٍ لم يرقد عليها ، حيث كان معافى ..
هل هبّت ريح .. وتهطل مطر .. لا علم له ..
من جراء شجرة ، شوهاء تخللتها الرعونة ..
عبث هو الانصات إليه ..
لا يطرق باب بيتٍ غير مأهول ..

ثم يقول في مقطوعة « المقابر » :

ومقابل المدينة الغارقة بالمسرّات ؟
يغمر المقابر المغطاة بالسرو ، صموت ،
يسكت ، ويذكّر هذا الانكسار :
ما ينعكس على المرآة من كآبة التباريح ..

★★★

هذا مصيركم .. أنتم غافلون .. لا علم لكم ..
لو أدركتم ، ما ينتظركم أيها الناس ..
من أجل أن تتفتح هذه الزهور ، ذات يوم ..
يزدهر سكون الموتى ..

ومع تأكيد جاهد على هذه الفكرة التي عادت الصفة الغالبة في حياته الشخصية والأدبية ، ومحاولته معالجتها قدر ما أوتي من موهبةٍ خصيبة ، كان الاتجاه الانساني أبين خصائص نتاجه الشعري والقصصي . تدعوه الى ذلك كله عقدة تشاؤمية .. انطوائية متركزة في اعماقه ، ملكت على أسباب عقله وقلبه ، وهو يذوق مرراتها ، وينوء تحت عبئها .

أحب جاهد الانسان .. واهتم بعلائقه بأخيه الانسان .. وطرق مطامحه ، وامانيه ، ومناكفات حياته ، وناداه بالصفح عن اعدائه قدر الاستطاعة .. فان فعل ذلك فانما تتبدد غشاوات الظلام والغربة واليأس .. اذ انزل هذا الانسان من نفسه منزلة تقديس واجلال ..

ويروى أنه عندما لقي رجلا فقيرا ، يبث الأنين والحرقة ويغالب الحرمان والشظف ، كان مرآه مؤثراً ، يطحن القلب كالرحى ، فاستخلص نتائج قيمة من طبيعة هذه الحياة القاهرة .. التي تتداخل شئونها الى درجة الحيرة .. على أن أسعد شيء لدى جاهد : أن يمسك بتلابيب الانسان ، ويسأله ما يعنيه .. حيث يقول : إن مذهبه في الحياة يقضي بأن يكون النهوض بالانسان هو ما تنصب عليه رسالة الفنان .. كذلك يقول ما معناه : إن الشيء الذي ينتظر أن يفعله ابن الانسان الحق : هو ما يجب ان ينتظر من الشعر هو الآخر .. هذا دستوره وقد طبقه في نطاق قدرته دون مخالفةٍ ..

ثمة قصصه « عباس » و « خادم الفندق » و « ماورمانيس أفندي » .. هذه التي انطوت على اللفتات الانسانية الخيرة ، والافكار المضيئة ، في تصوير احداث المجتمع وقضايا افراده العديدين .. الذين تتنازعهم شتى المشاعر والميول .. غير أن هاتيك القصص لم تدع النقاد الى التفاؤل بمستقبل جاهد القصصي ، فانهم لاحظوا عليها إفتقارها الى عناصر الاستواء والتكامل ، وانعدامها من عوامل الاثارة والحركة ، وهي شروط فنية ينبغي توافرها بغية نقل القارىء الى اجوائها الملائمة .. على أن رأي النقاد كان سديدا مصيبا ، في قصصه ، بدلالة أن جاهد حين كتب فيما بعد بعض القصص الاخرى ، كشف عن عجزه من الوجهة الفنية .. وربما كان العجز مرده الى ضآلة المعاناة ، وضعف التجربة ، او الاعراض ، او اللامبالاة او أي شيء آخر .. حتى ذهب بعضهم يقول : إن جاهد تمكن أن يقول كلماته الأخيرة في فن الشعر ، بيد أنه لم يستطع ان يقول مثلها في فن القصة ..

والظاهر أنه كان يهمه أن يصير شاعراً ، وشاعراً شهيرا ، قبل أن يصير شيئاً آخر ..

★★★

غلا جاهد في نظرته الانسانية الى درجة أخرجتها عن طورها

الطبيعي المألوف .. دعا الى المستحيل .. ونحن في عصر تتصدى لفيضان المدنية المادية الغارقة في التعقيدات العجيبة الآخذة بالانفجار الهائل المخيف .. دعا الى العالم المثالي .. الخالص من صنوف الآلام والمشقات ، والوان الاحقاد والمطامع التي لا تريد عن الانسان فكاكا ، ولا تتخلى عن ملازمته كالظل ، ما دامت تستوعبه هذه البسيطة .. الانسان الذي تتأرجح حياته اطلاقا بين الاستقرار والاضطراب .. بين التقدم والتقهقر .. بين الحلاوة والمرارة .. بين الخير والشر .. بين الصلاح والطلاح .. بين البقاء والفناء ..

إن الخيال الطائر الذي يسمو بالشاعر للتحليق في الاجواء الوسيعة الخالية من سدود وحواجز ،والانسياق خلف امنياتٍ تتبخر ، لهو التهرب المفضوح من ظلام الواقع ودروبه الكثيرة .. الملتوية ، الى دنيا لا يمكن أن تقوم لها قائمة ..

ولعل هذه الدعوة هي النتيجة الحتمية لما عاناه جاهد عبر حياته التي اتسمت بأفجع ما تتسم به من بؤس ، وفراغ ، ويأس ، وألم .. ومن يحاول حمل هذه الدعوة على غير محملها الطبيعي ويفسر محتواها تفسيرا خاطئا غير موضوعي،فهو بلا شك عبيد الوهم السحيق ، والخطل الكبير .. إن تفسيرا كهذا لينطوي على مجانفة بعيدة ، واساءة بليغة.. وليس من الجائز في شيء أن يلام عليها جاهد ، ما دام تحقيق مثل هذا العالم المثالي خرافة ما بعدها خرافة ..

ثم إن جاهد لم يأت بجديد .. وانما هناك الكثيرون[1] تتحدث صفحات التاريخ على تقادم أزمنته ، عن دعوتهم الى إقامة مثل هذا العالم السامي .. المتسامي .. الكامل المتكامل .. وتخيلهم له على النحو الذي ظنوه ملائما كل الملائمة لطبيعة الحياة الانسانية ..

إسمعه يقول في مقطوعته « الأرض المنشودة » :

أنشد أرضاً ..

---

(١) كافلاطون والفارابي وتوماس مور وغيرهم .

توشحها سماء لازوردية .. أفنان خضر .. حقول صفر ..
تمسي ملاذاً للأطيار والأوراد ..
انشد ارضاً ..
ما بها توجع في الهامات .. وتحسّر في الأفئدة ..
وتصبح خاتمة لسجال الأخوة ..
انشد ارضاً ..
تكون فيها الحياة من صميم الفؤاد ، كما لو كان حباً ..
ولئن انبرت هناك شكاة ،
فلتكن من الموت ذاته ..

المظان والموارد ...

١ — أسلام انسيكلوبيديسي .
٢ — تورك مشهورلري انسيكلوبيديسي — ابراهيم علاء الدين .
٣ — متنلي تورك ادبياتي ٣ اجزاء — ابراهيم نيساري .
٤ — تورك ديلي وادبياتي الجزء الثالث — مصطفى نهاد .
٥ — ادبياتجيلرمز قونوشيور — وارلق ياين ايوي .
٦ — اللي بويوك آدام — رشاد اكرم .
٧ — تورك ادبياتي شاه اثرلري — وصفى ماهر .
٨ — يكي تورك شعري انطولوجيسي .
٩ — تاريخ ادبيات درسلري — ابراهيم نجمي .
١٠ — باطي ناثيري التنده تورك شعرى انطولوجيسي — كنعان أق بوز .
١١ — يكى تورك شعرلري انطولوجيسي .
١٢ — تاريخ ادبيات عثمانية — شهاب الدين سليمان .
١٣ — تاريخ ادبيات عثمانية — الجزء الاول — فؤاد رشاد .
١٤ — تنظيمات ادبياتي انطولوجيسي — سعاد هيزارجي .
١٥ — احمد هاشمك سامبولزيمي — جميل اون كون .
١٦ — كوزەل يازيلر — سليمان شوكت .
١٧ — تنظيماتەك بري ادبيات انطولوجيسي — اسماعيل حبيب .
١٨ — يكي شعرلرمز انطولوجيسي — صباح الدين باتور .
١٩ — تورك ادبياتنده ينيلكلر — حسين قرەقاز .
٢٠ — شعر دفتري — وصفي ماهر .
٢١ — توفيق فكرت وشعرلري — دكتور محمد قبلان .
٢٢ — تورك ينيلك شعري انطولوجيسي — يشار نابي .
٢٣ — احمد هاشم — شريف خلوصي .
٢٤ — فكرتك حيات واثري — صالح نكار كرامت .
٢٥ — نامق كمال — وصفي ماهر .
٢٦ — محمد عاكف — جميل ثناء .
٢٧ — شاعر واديبلرك حياتي — مراد اوراز .
٢٨ — توفيق فكرت — احمد حمدي .
٢٩ — احمد هاشم — مراد اوراز .
٣٠ — نامق كمال — سليمان نظيف .
٣١ — فرانكفورت سياحتلري — احمد هاشم .
٣٢ — باقي — نوزار يا سركبل .
٣٣ — توفيق فكرت — يشار نابي .
٣٤ — حسين جاهد — سعاد هيزارجي .
٣٥ — بتون جبهه لريله يحيى كمال .
٣٦ — يحيى كمال — مراد اوراز .
٣٧ — صون شعرلري — توفيق فكرت .

محتويات الكتاب

٣٨ ــ شناسي ــ مراد اوراز .

٣٩ ــ نامق كمال ... حكمت دزدار اوغلو .

٤٠ ــ تاريخ الادب التركي ــ حسين مجيب المصري .

٤١ ــ من ادب الفرس والترك ــ حسين مجيب المصري .

٤٢ ــ تورك شعرندك اورنكلر ١٩٢٠ ــ ١٩٤٤ ــ ياقي سها .

٤٣ ــ ادبيات انطولوجيسي ٦ اجزاء ــ مراد اوراز .

٤٤ ــ يورد ايجون .. اولوس ايجون ــ جودت قدرت .

٤٥ ــ ادبيات ــ علي جانب .

٤٦ ــ ديوان شعري انطولوجيسي ــ وصفي ماهر .

٤٧ ــ اوتوز بش ياش ــ جاهد صدقي .

٤٨ ــ صفحات ــ محمد عاكف .

٤٩ ــ منتخبات شعرية ــ جاهد صدقي .

٥٠ ــ دشتان كوزه‌ل ــ جاهد صدقي .

٥١ ــ وارلق مجموعه‌سي ٤٤١ــ١٩٥٦ .

٥٢ ــ التون كتاب مجموعه‌سي صايى ١ــ٢ــ٣ــ٤ــ١٩٥٥ــ بكر اوستنال .

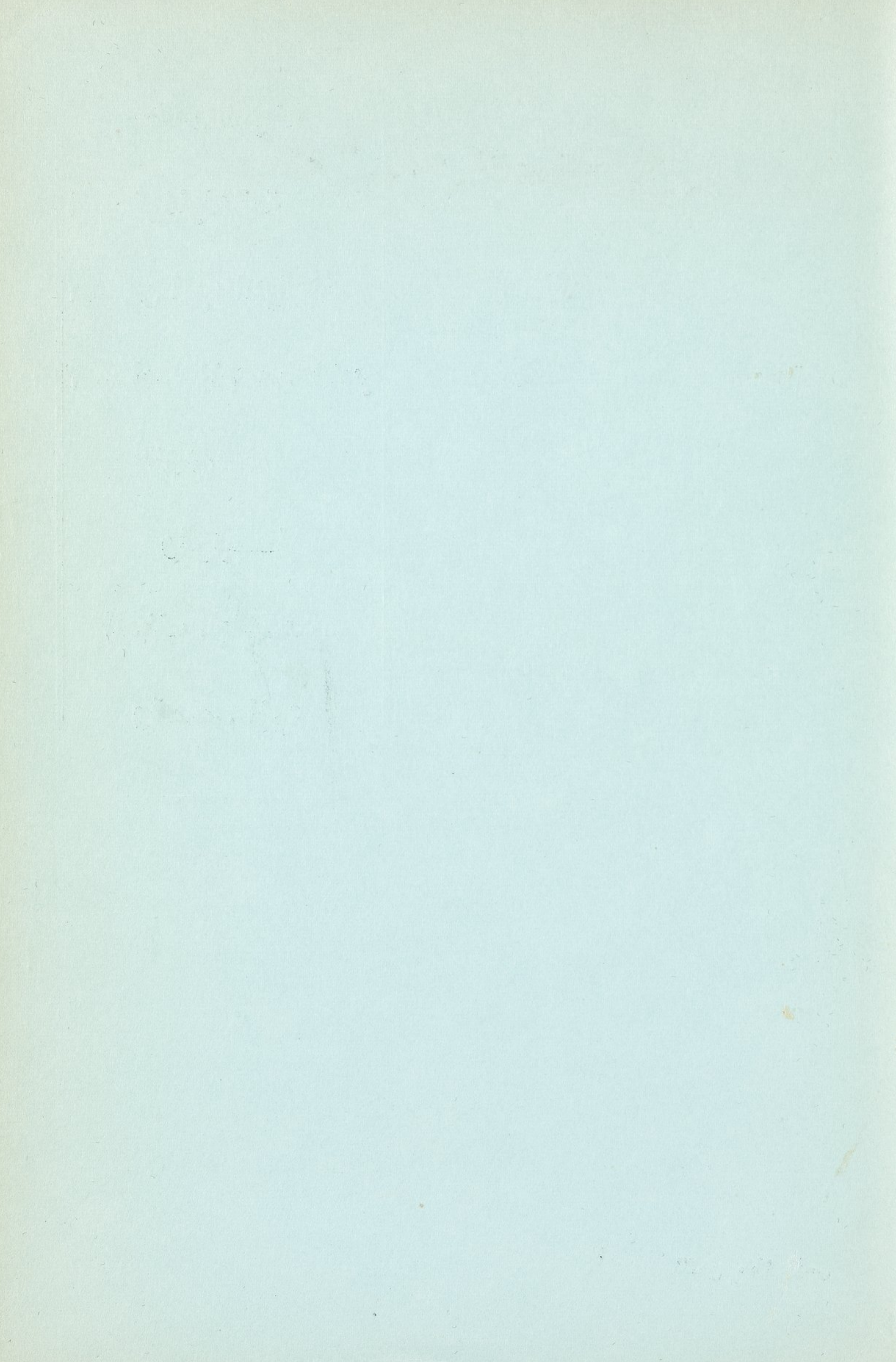
٥٣ ــ بشير مجموعه‌سي ــ ١٩٥٩ .

٥٤ ــ فارسيات وتركيات ــ حسين مجيب المصري .

٥٥ ــ مجلة الرسالة المصرية ــ احمد حسن الزيات .

٥٦ ــ مجلة أدبي ــ للدكتور احمد زكي ابو شاري .

انتهى طبع الكتاب في العاشر من حزيران سنة ١٩٦٥



صدر للمؤلف

١ ـ خواطر هائمة

٢ ـ من ادب التركمان

٣ ـ اعـــلام من الادب التركي

وقريبـــا

المعطف الجلـــدي وقصص اخرى

الثمن ٢٠٠ فلس